
الدكتورة
منى محمد طعمة
أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية
الدكتورة
نور الهدى محمد سمير حناوي
مدرّس في قسم اللغة العربية
إلدكتور
أحمد سليمان الشريف
مدرّس في قشم اللغة العربية
علوم اللغة
اللسانيات
منشورات جامعة دمشق

منشورات جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية

علوم اللغة

اللسانيَّات

الدكتورة منى محمّد طعمة — أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية
الدكتورة نور الهدى محمّد سمير حنّاوي — مدرّس في قسم اللغة العربية
الدكتور أحمد سليمان الشريف — مدرّس في قسم اللغة العربية

جامعة دمشق

1439 – 1440هـ
2018 – 2019م



فهرس محتويات الكتاب

المقدّمة

اتّسعت ميادين البحث اللغوي وتنوّعت أساليبه ومناهجه، وبدأت الدراسات اللغوية تنحو منحى العلميّة، فنشأت فروع علمية جديدة كانت اللسانيّات أو علم اللغة جزءاً منها، وقد تخيّرنا من المباحث التي تدرسها اللسانيّات الحديثة ما نعتقد أنّه أولى بالبحث ممّا سواه، وما يتناسب والتخطيط المنهجي الجامعي، وقد روعي في اختيار الموضوعات ما يوفّق بين الدّراسات الحديثة وأعلامها ومدارسها وبين الدراسات القديمة ومعطياتها، مع المحاولة الممكنة لتقديم شرح واضح مبسّط للمصطلحات اللسانية والمدارس اللغوية الحديثة المتداخلة والمتشعّبة.

ولا ندّعي في هذا الكتاب تقديم جديد غير معروف، بل إنّ ما أوردناه في كتابنا مفرّق في كتب علماء اللغة واللسانيين المحدثين عرباً وغرباً، وقد اعتمدنا في جمعنا على مصادر ومراجع مترجمة واضحة وعربية مشروحة، لأنّ البحث اللساني لَمّا يكتمل عربيّاً بعد.

وقد جعلنا الكتاب في فصول متعدّدة، تضمّن الفصل الأول منه الحديث عن صلة علم اللغة أو اللسانيّات بالعلوم الأخرى اللغوية والإنسانية وهي صلة تكشف عمق الصّلة بين اللغة ومناحي الحياة عامّة.

وعالج الفصل الثاني المناهج الحديثة في دراسة اللغة، وهي مناهج تتداخل وتتشعّب ويتصدّرها المنهج الوصفي الأوسع في الدراسات، ومن ثمّ عرضنا للمنهج التاريخي فالمقارن.

واستقلّ الفصل الثالث بالموضوعات التي تدرسها اللسانيّات أو المستويات اللغوية التي يطرقها اللسانيّون في دراساتهم وأوّلها: الجانب الصوتي والمصطلحات الصوتية الحديثة

والتحليل الصوتي الحديث، وثانيها: الجانب الصرفي وما فيه من مصطلحات جديدة وصيغ صرفية محلّلة وفق المناهج الحديثة.

وثالثها: الجانب النحوي وأبرز الاتجاهات اللسانية في التحليل، مثل الاتجاه الوظيفي والتوزيعي والتحويلي.

أما رابعها: فهو الجانب الدلالي وهو قطب الدراسات اللسانية الحديثة فقد رصدنا محور الدلالة وجمعنا ما يتضمّن من دراسة للمعنى والحقول الدلالية والسياق ومحور العلاقات الدلالية، ومحور التغيّر الدلالي.

وقد قدّمنا في الفصل الرابع حديثاً عن الأسلوبيّة التي تُعدّ فرعاً من فروع اللسانيّات، وكذلك السيميائيّة ووضعنا بعض النصوص التطبيقية والنظرية المختارة من كتب لسانيّة متعدّدة.

ولا شكّ أن هناك بعض القضايا اللغوية التي تحتاج تعمّقاً ودراسة، لكنا آثرنا أن يقدّم هذا الكتاب مبادئ عامة واضحة لطالب السنة الثالثة في قسم اللغة العربية، ورفدناه في المصادر والمراجع بأهمّ الكتب التي استقينا منها كتابنا، ليستكمل معرفته ويسدّ النقص ويحيط أكثر بالبحث.

والله الموفّق

الأساتذة المؤلّفون

الفصل الأول

صلة علم اللغة "اللسانيّات" بالعلوم الأخرى

تمهيد: اللغة بين الفقه والعلم

إنَّ تحديد مفهوم كلّ علم من العلوم مرتبط بفهم المصطلح وتأصيل دلالته، ولذلك سنبدأ بتعريف لـ"فقه اللّغة" ومن ثم لـ"علم اللّغة (اللسانيّات)" حتى نستطيع التفريق بينهما، وإن كانت أكثر مباحثهما متداخلة، والعلاقة بينهما وثيقة كعلاقة الجدّ بالحفيد كما يراه كثير من الباحثين في العصر الحديث.

فالفِقه– لغة– بالكسر: العلم بالشيء والفهم له، وغلب على علم الدِّين لسيادته وشرفه وفَضْله على سائر أنواع العلم... وفَقِه فِقْهاً: بمعنى عَلِمَ عِلْماً.[1]

واللّغة كما عرّفها ابن جنّي: ((أصوات يعبّر بها كل قومٍ عن أغراضهم))[2]. وقد كان المنطلق لدراسة اللّغة خدمة الدين الإسلامي وفهم غريب القرآن الكريم والحديث الشريف والحفاظ على اللّغة من اللحن.

ومن الجمع بين مصطلحي "الفقه" و"اللّغة" نصل إلى أن مصطلح "فقه اللّغة" يعني: دراسة الأصوات والكلام دراسة شاملة عميقة تهدف إلى فهم اللّغة فهماً واسعاً دقيقاً، وعِلم دقائقها ومكنوناتها، ومقصده دراسة اللّغة العربية خاصة، والمعنى الواسع لفقه اللّغة يشمل: اللّغة والنحو والصرف والبلاغة والمعجم، وكلّ ما يتعلق بالشروح اللغوية والتفاسير الخاصة بها. ومن ثمّ بدأت مباحثه بالتخصص، فأخذت تقتصر على الحديث عن نشأة اللّغة وصلتها باللغات الأخرى، والحديث عن أصوات العربية ودلالاتها

(1) اللسان "فقه".

(2) الخصائص 33/1.

وخصائص العربية ولهجاتها، ومظاهر تتعلق بالألفاظ كالترادف والمشترك اللفظي والأضداد والاشتقاق والمعرّب والدخيل وغيرها من المظاهر المختصة بالعربية.

ويقابل مصطلح "فقه اللّغة" عند الغرب مصطلح philology وهذا الاسم مقتبس من اليونانية، وهي كلمة مركّبة من لفظين أحدهما philos بمعنى الصّديق، والثاني logos بمعنى الخطبة أو الكلام، فكأنّ واضع التسمية لاحظ أنّ فقه اللّغة يقوم على حبِّ الكلام للتعمّق في دراسته من حيث قواعده وأصوله وتاريخه. ولذلك يكتسب هذا المصطلح صفة "القِدم" أي: الدراسات الأصولية للغة الأم،ويسير منهج فقه اللّغة وفق المعياريّة والوصفيّة القائمة على السّماع من لغة الفصحاء والقياس على كلامهم.

أمّا مصطلح "علم اللّغة" (اللسانيّات)Linguistics فتستوقفنا مجموعة من التعريفات له، وتعود في أغلبيتها إلى أنَّه العلم الذي يدرس اللّغةالإنسانية دراسة موضوعيّة علميّة، تقوم على الوصف ومعاينة الوقائع بعيداً عن النزعة التعليميّة والأحكام المعياريّة، وغرض هذه الدراسة العلمية الكشف عن خصائص اللّغة وعن القوانين اللغويّة التي تسير عليها ظواهرها الصوتية والصرفيّة والنحويّة والدلاليّة والاشتقاقية والكشف عن العلاقات التي تربط هذه الظواهر بعضها ببعض، وتربطها بالظواهر النفسية وبالمجتمع وبالبيئة الجغرافيّة.

وموضوع اللسانيات الصحيح الوحيد "هو اللِّسان في حدِّ ذاته ومن أجله" وغايته التطلع إلى طبيعة اللسان والكشف عن أسراره وقوانينه وتحصيل معرفة علميّة للّسان بوساطة اللِّسان ومن أجله".

ولذلك ترجم مصطلح "علم اللّغة"Linguistics إلى "اللسانيات" أو "علم الألسنية العام"، أو "علم اللسان". وقد اعتمد مصطلح "اللسانيات" على أنه أيسر

المصطلحات وأنسبها وأكثرها تداولاً في البلدان العربية، وأقربها إلى روح العربيّة، لأنّنا نقول اللسانيّات على قياس الرياضيات والبصريّات والفيزيائيات والكيميائيات وغيرها.(1)

وكلمة "علم" المقترنة بـ"اللّغة" تجعل من البحث اللغوي يخطو خطوات جديدة في ميدان الملاحظة والتجريب والموضوعية واستخدام وسائل العلم الحديثة المخبرية في البحث، وعلى نحو يشبه أو يقارب ما نلقاه في ميدان العلوم التجريبيّة عامّة.

فغاية علم اللّغة (اللسانيّات) التطلّع إلى طبيعة اللِّسان والكشف عن أسراره وقوانينه، وتحصيل معرفة علمية لتلك اللّغة التي يدرسها، وإخضاع الظواهر اللغويّة لمناهج البحث العلمي خلافاً لما كان عليه الحال من قبل.

وقد أجمل اللسانيون نقاط الاختلاف بين فقه اللّغة وعلم اللّغة "اللّسانيّات"(2) بما يلي:

1- إنّ اللسانيّات تتّصف بالاستقلال، وهذا مظهر من مظاهر علميّتها على حين أنّ النحو Grammar التقليدي والدراسات اللغوية كانت تتّصل بالفلسفة والمنطق والتاريخ والنقد بل كانت خاضعة لهما في بعض الأحيان.

2- تهتمّ اللسانيّات باللّغة المنطوقة قبل المكتوبة، على حين أنَّ علوم اللّغة التقليدية فعلت العكس، فلم تعن الدراسات اللغوية قديماً بما هو منطوق.

3- تُعنى اللسانيّات باللَّهجات ولا تفضّل الفصحى على غيرها، على النحو الذي كان سائداً من قبل، فاللهجات- على اختلافها وتعدّدها- لا تقلّ أهمية عن سواها

---

(1)المصطلح تبناه د.عبد الرحمن الحاج صالح في ندوة عام 1978 تحت عنوان "الألسنية واللّغة العربية".

(2)انظر قول جون ليونز (J.Lyos) في: نظرية تشومسكي اللغوي ص39 وما يليها ومبادئ اللسانيات د.أحمد قدور 16.

من مستويات الاستخدام اللغوي. بينما انصبّ اهتمام فقهاء اللّغة على الفصحى واللهجات الفصيحة ولم تُعِر اللهجات الأقل فصاحة الاهتمام الكبير.

4- تسعى اللسانيات إلى بناء نظريّة لسانيّة لها صفة العموم، إذ يمكن على أساسها دراسة جميع اللغات الإنسانية ووصفها. بينما فقه اللّغة يختص بلغة معيّنة، وفق معايير وضوابط خاصّة.

5- لا تقيم اللِّسانيّات وزناً للفروق بين اللُّغات البدائية واللغات المتحضّرة، لأنّها جميعاً جديرة بالدرس دونما تمييز أو انحياز مسبق، بينما مجال دراسة فقه اللّغة يركز على اللّغة الفصحى العالية في المقام الأول، ويبحث في أصولها وخصائصها وأبنيتها، ويلقي بعض الضوء على روابط القربى بينها وبين اللغات الإنسانية الأخرى وما دخل منها إليها.

6- تدرس اللِّسانيّات اللّغة الإنسانية في كليَّتها وعلى صعيد واحد، ضمن تسلسل متدرّج من الأصوات إلى الدّلالة مروراً بالجوانب الصرفيّة والنحويّة.

بينما تصب مباحث فقه اللّغة اهتمامها على لغة بعينها دون غيرها وتدرسها دراسة خاصّة وفق منهج استقرائي وصفي تاريخي يعرف به موطن اللّغة الأول وفصيلتها وعلاقتها باللغات المجاورة أو البعيدة، وخصائص أصواتها، وأبنية مفرداتها وتراكيبها، وعناصر لهجاتها، وتطور دلالتها ومدى نمائها قراءة وكتابة دون أن تخرج بقانون عام يطبق على اللغات الإنسانية عامة.

7- ولعلّ أهمّ ما جعل دراسة اللّغة أو اللسان في القرن التاسع عشر علماً هو إخضاع الظواهر اللغوية لمناهج البحث العلمي واستخدام وسائل العلم الآلية الحديثة في دراسة اللّغة من مخابر لغوية وأجهزة الكترونية وأشعة تصويريّة لوصف الصوت وتحليله، وتصوير لأعضاء النطق والعضلات المحرّكة لهذه الأعضاء، بينما كانت وسائل فقه اللّغة السماع عن طريق الأذن والملاحظة المباشرةوالقياس والوصف لفهم الظاهرة اللغوية.

8- يفترق فقه اللّغة عن علم اللّغة (اللسانيّات) أنّ دائرة الفقه أضيق وأعمق، لاقتصارها على واحدة بذاتها من لغات البشر، وأعمق لأنَّه يوليها عناية خاصّة من حيث مميزاتها وتاريخها.

9- مصطلح "فقه اللّغة" تغلب عليه سمة القدم والدراسات القديمة للغة، وتاريخ نشأته وظهور علمائه مرتبط بتاريخ اللغات، وفقه اللّغة العربية مثلاً علم عربي خالص، عربي النشأة والتطور، عربي المصطلح، عربي البحوث والباحثين. أما علم اللّغة "اللسانيّات" فهو علم حديث يعود غالباً إلى القرن التاسع عشر، ودراساته حديثة للغة وهو غربي البحوث والباحثين.

ومظاهر الاختلاف بين فقه اللّغة وعلم اللّغة (اللسانيّات) لا تعني استقلال كل دراسة فيهما عن الأخرى، ويمكن القول إن التفرقة بين المصطلحين حديثة النشأة نسبيّاً، إلاّ أنّها كانت آخذة في الاتّساع تدريجياً، وبما يتّفق وسرعة وضوح حدود كلّ من المصطلحين ومعالمهما حتّى استويا على الصورة الحالية عند الغربيين، أمّا عند اللغويين العرب فإلى زمن غير بعيد كان نفرٌ من الباحثين في اللّغة يسوّي بين (علم اللّغة) و(فقه اللّغة)، دون أن يجد بين التسميتين أيّ خلافٍ.

لكن حَرَص الباحثون المتابعون لعلم اللسان الحديث على الدِّقّة العلمية في ترجمة المصطلح Linguistics بعلم اللّغة (اللسانيّات) والمصطلح philology بفقه اللّغة، وأبرزوا أوجه الاختلاف بينهما، ولكن هذا التفريق أبقى على لون من الصلة بين المنهجين يتجلّى في تعاونهما وتكاملهما في بعض المجالات وصولاً إلى الإحاطة التامة بجوانب اللّغة كلّها.(1)

---

(1) انظر دراسات في اللّغة، د.مسعود بوبو 28، 29.

فالنتائج التي يمكن أن يتوصّل إليها فقه اللّغة في دراسة لغوية معينة كاللهجات أو الأصوات أو الظواهر الدلالية المعنوية تشكّل رصيداً جيّداً قد يستفيد منه منهج علم اللسان الحديث فائدة كبرى في الأبحاث اللغوية المقارنة أو الأبحاث الصوتية أو التطور اللغوي عامّة، وقد عبّر د.حسن ظاظا عن ذلك بقوله:

((... وعلم اللّغة بدوره يستفيد فائدة كبيرة جداً وضرورية لازدهاره بالرجوع إلى النتائج الملموسة التي يصل إليها فقه اللّغة في بحثه في اللغات المختلفة، لدرجة أن علم اللّغة لا يمكن تصوّره دون فقه اللّغة، بل بتعبير أدقّ، فقه اللغات))(1)..

وصفوة القول: إنّ على الباحث اللغوي أن يفيد من نتائج فقه اللغات المتعدّدة في صوغ أبحاثه العلمية اللغوية اللسانية العامة، فمعرفته بالدراسات التاريخية والأسر اللغوية المتعدّدة وسماتها ترفده بخبرة لغوية تعينه على اكتشاف القواعد العامة التي تنتظم اللغات الإنسانية جميعها، وعلم اللسان، وإن وصف بالاستقلالية في دراسة اللّغة، إلا أنه ليس بمعزل عن التأثُّر بالعلوم الأخرى سواء أكانت لغوية أم غير لغويّة، وهذا ما سنراه في الصفحات التالية من الكتاب.

صلة علم اللسان بالعلوم الأخرى:

يتّصل علم اللسان بعلوم متعدِّدة لغوية وغير لغويّة، تؤثّر فيه أو تتأثّر به، ويتحدد مقدار هذه الصّلة تبعاً لطبيعة تلك العلوم، فعلم اللسان ((يرتبط بقوّة بالعلوم الأخرى، يستعير من معطياتها أحياناً، كما يزوّدها بالمعطيات أحياناً أخرى))(2).

---

(1) اللسان والإنسان 12.

(2) القول لسوسور، انظر: فصول في علم اللّغة لفرديناند دو سوسور 26، ترجمة: د.أحمد نعيم الكراعين.

والأبحاث اللغوية التي تدرس اللّغة بمعزل عن العلوم الإنسانية المتصلة بها تكون أبحاثاً مفتقرة إلى الروح العلمية التي هي أساس علم اللّغة (اللسانيّات) الحديث. ولعلَّ أبرز العلوم التي تؤثر في علم اللسان وتتأثر به هي: علم الاجتماع وعلم النفس، والتاريخ، وعلم الطبيعة "الفيزياء"، وعلم وظائف الأعضاء، والجغرافيا والسياسة.

وسنتناول هذه الصِّلات بين اللّغة والعلوم المتعدّدة لبيان مدى التكامل في العلاقات بينها، وإبراز الفائدة في تنامي البحث اللغوي الحديث الآخذ بمبدأ الشمول والتعميم في الأسس النظرية والمبادئ العلمية التي تصلح لهذه العلوم كلها.

أولاً: علم اللّغة (اللسانيّات) وعلم الاجتماع:

إن علاقة علم اللّغة (اللسانيّات) بعلم الاجتماع علاقة وثيقة جداً، فاللّغة ظاهرة اجتماعية وليست ظاهرة فرديّة، لأنَّ ((وجود اللّغة يشترط وجود مجتمع، فليس هناك نظام لغوي يمكن أن يوجد منفصلاً عن جماعة إنسانية تستخدمه وتتعامل به))[1].

وقد عبّر عالم العربية أبو الفتح عثمان بن جنّي 392هـ منذ قرابة ألف سنة عن الصلة بين اللّغة والمجتمع، فقال: ((حدُّ اللّغة أصوات يعبِّر بها كلّ قوم عن أغراضهم))[2].

وهذا التعريف الموجز للغة عند ابن جنّي أجمل ما جاء به علماء اللّغة بعده عرباً وغرباً، ولم يضف من جاء بعده جديداً على تعريفه إلا التفصيل والشرح. فأصوات اللّغة يستخدمها الإنسان ليترجم أفكاره ومشاعره لمن حوله من بني جنسه، أي للمجتمع، ولم يخالف علماء اللسان المحدثون هذا التعريف، فعالم اللّغة فندريس يقول: ((في أحضان المجتمع تكوَّنت اللّغة، ووجدت يوم أحسَّ الناس بالحاجة إلى التفاهم))[3].

---

(1) انظر: مدخل إلى علم اللّغة، محمود فهمي حجازي 12.

(2) الخصائص 330/1.

(3) اللّغة لفندريس 35.

ويقول ماريو باي: ((إن اللّغة لها علاقة وثيقة بعلم الإنسان وعلم الاجتماع باعتبارها نتاج علاقة اجتماعية))[1].

وقد أطلق العلماء على هذا الاتجاه الاجتماعي في دراسة اللّغة اسم "علم الاجتماع اللغوي" أو "علم اجتماع اللّغة" the Sociology of Language وقد عرّف د.كمال بشر هذا العلم بقوله: ((وليس المقصود بهذا العلم أنّه تركيبة أو توليفة من علم اللّغة (اللسانيّات) وعلم الاجتماع، أو أنه مزج لهما، أو تجميع لقضاياهما ومسائلهما، إنّه يعني باختصار شديد ذلك العلم الذي يدرس اللّغة في علاقاتها بالمجتمع، إنّه ينتظم كلّ جوانب بنية اللّغة، وطرائق استعمالها التي ترتبط بوظائفها الاجتماعية والثقافية))[2].

وسواء أأسرف أصحاب علم اللّغة (اللسانيّات) الاجتماعي من الغرب والعرب في ربط هذا العلم بالمجتمع أم اعتدلوا، فهم جميعاً متّفقون على دراسة هذا الارتباط، ويسوّغ ظهور هذه الدراسة أنّ المشكلات اللغوية والاجتماعية مترابطة ترابطاً وثيقاً، حتى إنّ علم اللّغة (اللسانيّات) ذاته قد عدّ أحياناً من العلوم الاجتماعية.[3]

ويمكن القول إنّ مستوى التطور الاجتماعي يرسم مستوى التطور اللغوي، فاللّغة مرآة للحياة الاجتماعية، وهي من أصدق الوسائل وأدقّها في الكشف عن طبيعة المجتمعات وسماتها الحضارية. فاللّغة العربية في العصر الجاهلي نقلت إلينا سمات المجتمع الجاهلي وخصائصه البدويّة.[4]

---

(1) أسس علم اللّغة لـ ماريو باي 42، ترجمة أحمد مختار عمر.

(2) علم اللّغة الاجتماعي، د.كمال محمد بشر 41.

(3) انظر: في علم اللّغة، د.غازي مختار طليمات 23.

(4) انظر: المرجع السابق 25.

وأسرف بعض علماء اللّغة في تعصبهم لعلم الاجتماع وربط اللّغة به ربطاً محضاً، حتى أفضى بهم الإسراف إلى جعل اللّغة عادة من عادات السلوك الاجتماعي، وكادوا في غمرة تعصبهم لعلم الاجتماع أن يسقطوا من دراستهم اللغوية دلالات الألفاظ، وارتباط هذه الدلالات بالعقل، وهذا ما نراه عند عالم النفس الأمريكي سكينر Skainer الذي ألف كتاباً بعنوان "السلوك اللغوي"، وقد نظر سكينر إلى اللّغة على أنّها ظاهرة اجتماعية تستحق الدراسة والعناية، مثلها في ذلك مثل أية عادة سلوكية.

وإلى مثل هذا نحا العالم السويسري- دوسوسور De Saussure إذ قرّر أن جميع المؤثّرات في حياة اللّغة ترجع إلى أمور اجتماعية.[1] وقد ظهرت علوم لغوية فرعية أخرى، قد تلامس علم اللّغة الاجتماعي أبرزها: علم اللّغة الأنثروبولوجي Anthropological Linguistics يعنى بدراسة اللّغة في علاقتها بالبحوث الخاصّة بأنماط السلالات البشرية وأنماط سلوكها، ونستطيع أن نعرّفه أيضاً بـ علم اللّغة العرقي، أو علم السلالات.[2]

ومما تقدّم نخلص إلى أن علم اللّغة الاجتماعي أصبح من العلوم البارزة في ميدان الدرس اللغوي، واللّغة والمجتمع يتبادلان التأثّر والتأثير. وعلم اللّغة (اللسانيّات) وعلم الاجتماع متداخلان ومتكاملان، فاللّغة نتاج اجتماعي، وتطوّرها مرتبط بتطور المجتمع، وتنوّعها يتفق وتنوّع المجتمعات التي تتكلمها، وحتى ألفاظها توشك أن تكون صورة حقيقية لطبيعة المجتمع الخاص بها، وإنّ أيّ تعريف للغة يغفل صلتها بالمجتمع ووظيفتها فيه سيكون ناقصاً، إذ لا يمكن أن تدرس اللّغة دراسة متكاملة بمعزل عن إطارها الاجتماعي.

---

(1) انظر: في علم اللغة، د.غازي مختار طليمات، 27، 28.

(2) انظر: علم اللّغة الاجتماعي، د.كمال بشر 44.

ثانياً: علم اللّغة (اللسانيّات) وعلم النفس:

إنّ الصِّلة بين علمي اللّغة أو اللسان والنفس ليست صلة مجازية، بل هي صلة نسب وانتماء، ولا تقلّ أهمية هذه الصلة عن أهمية الصلة بين علم الاجتماع وعلم اللّغة (اللسانيّات)، فالظواهر اللغوية ظواهر اجتماعية عامة وظواهر نفسيّة فرديّة، ويتجه علم النفس بصورة عامة إلى فهم الطبيعة البشريّة فهماً حسناً، ويعتمد اعتماداً واسعاً على اللّغة ويستعين بها، فالفكر أنجب اللّغة، وعلم اللّغة (اللسانيّات) أنجب علم النفس اللغوي Psycolinguistics وهو علم يدرس العلاقة بين اللّغة والعقل. وقد أصبح علم النفس اللغوي في السنوات القليلة الماضية قسماً بارزاً من علم النفس الحديث. فانصرف اهتمام العلماء إلى دراسة الصلة بين الظواهر اللغوية والظواهر النفسية على اختلاف أشكالها، وإلى الكشف عن عوامل تأثير كل منهما في الأخرى، ورصد هذا التأثير وقيمته التي ترجع في معظمها إلى الأسلوب اللغوي في الإيحاء والترغيب والترهيب وعمليات التحقيق والاستبطان النفسي والإقناع وإثارة العواطف وكشف الأمراض النفسية ومعالجتها وغير ذلك من الظواهر النفسية.

إنَّ بحوث علم اللّغة (اللسانيّات)متصلة ببحوث علم النفس، فكثير من المسائل التي يعرض لها يتوقف شرحها وفهمها وبيان أصولها وأسبابها على الرجوع إلى ما يرتبط بها من الظواهر النفسية، وإلى ما يقرره علم النفس في صددها، فتكوين المتكلم لعباراته وفق أفكاره، وإدراك السامع الحديث وفهمه، وصوغ العبارات وتدوينها كتابة، وفهم القارئ لنقوش الكتابة، وكسب الطفل للغته، وأداء اللّغة لوظائفها الدلالية، هذه الموضوعات كلّها وموضوعات أخرى تتّصل بها تحتاج حينما يتناولها اللغوي بالبحث إلى ما يقوله فيها عالم النفس. وبصفة عامة فإنّ الطبيعة اللغوية للإنسان "هويّته اللغويّة" وأسلوبه اللغوي، وألفاظه وعباراته، كلُّ ذلك يكشف عن تكوينه النفسي، وسلوكه، وطبيعته البشرية،

ويمكن القول إن معرفة الفرد قد تتاح من خلال أقواله، فحالات الإحباط قد يعتمد اكتشافها عند علماء النفس على استخدام الإنسان لألفاظ مثل: "الشعور بالذنب" أو "الشعور بالندم" أو "الشعور بالسخط".

وكثيراً ما يستعين علماء النفس في تشخيص الاضطرابات النفسية وفهمها على اللّغة التي يلجأ أصحابها إلى استخدام ألفاظ لها سمة المبالغة والغلو والتطرف أو الأحكام القطعية، نحو: "مطلقاً، دائماً، قطعاً، من المستحيل، لا فائدة، نهائياً، ..."، وكثيراً ما يصلون إلى الحالة النفسية الحقيقية للإنسان من خلال استخدامه لألفاظ بأعيانها لها عندهم منعكسات أو مرتسمات نفسية لا تخفى، نحو: "كارثة، مأساة، مصيبة، دمار، هزيمة، فشل، خيبة، ضيق، كبت، حرمان..."[1].

ولم يبرأ أرباب علم اللّغة النفسي من المبالغة أحياناً في تعليل الظواهر اللغوية، فقد ذهب بعضهم إلى أنّ المتكلم يقحم مشاعره في كلامه كلّه، لأن الإنسان لا يستخدم اللّغة للتعبير عن شيء فحسب، بل للتعبير عن نفسه أيضاً، وهم لا يريدون بما ذهبوا إليه التعبير الأدبي وحده، بل يوسّعون ما يعنون، ويدخلون فيه المحاورات والأحاديث اليومية المتعلّقة بتكاليف الحياة وشؤونها، لأنّ الإنسان كما يتكلم ليصوغ أفكاره، فإنّه يتكلّم ليؤثّر في غيره من الناس، ولا يستثنون من ذلك غير التفكير العلمي واللّغة العلمية التي يجب أن تكون معبّرة عن الحقيقة المجرّدة الخالية من الانفعالات النفسية.[2]

ومهما يكن من أمر إطلاق العلاقة التامة بين علم اللّغة (اللسانيّات) وعلم النفس، أو تحديدها وتخصيصها. فإنّ الصلة بين العلمين- كما ذكرنا- صلة انتساب لا يمكن تجاوزها، ولا يمكن الفصل بينهما، وكلّ منهما بحاجة إلى الآخر في تفسير كثير من

---

(1) انظر: دراسات في اللّغة، د.مسعود بوبو 62، 63.

(2) انظر علم اللّغة والنفس الإنسانية، د.مضان عبد التواب 137، 140.

الظواهر الإنسانية واللغوية، فهما علمان متلازمان.

ثالثاً: علم اللّغة (اللسانيّات) وعلم الطبيعة وعلم وظائف الأعضاء:

استطاع علم الطبيعة "الفيزياء" أن يقرض علم اللّغة (اللسانيّات) أبعاضاً من أساليبه وتجاربه وآلات مبتكرة من أدواته وأجهزته، استفاد منها اللسانيون وأفادوا، والمسوّغ الذي يسوّغ علم اللسان أن يقترض من علم الفيزياء- على اختلاف في المادة والوسائل والمناهج- أنّ في الفيزياء فرعاً يدرس الأصوات، سواء أصدرت عن الإنسان أو الحيوان أم صدرت عن المزامير والطنابير، لأنّ لكلّ صوتٍ اهتزازاً يقبل القياس، وخصائص يمكن أن تحدَّد بعدد الذبذبات التي تصدرها. وهنا يلتقي علم اللسان وعلم الفيزياء التقاءً محصوراً في فرع واحد من علم اللسان، هو دراسة الصوت. وقد استعمل علم اللسان مجموعة من الأجهزة الفيزيائية، أشهرها أربعة، وهي: السّقف الصّناعي، والكاشف، والمدوّن، والمسجّل.

أمّا السقف الصناعي فآلة حدباء تشبه سقف الحلق المطلي، توضع في الفم، فإذا نطق الناطق بحرف ضرب اللسان سقف الحلق فأثر فيه، فيحدّد مخرج الحرف، ومتى انحرف الصوت عن مخرجه، ولم تستطع الأذن أن تدرك انحرافه أدركه هذا الجهاز.

وأمّا الكاشف فآلة أخرى توضع على العضو الناطق أو المشارك في النطق أو المتأثّر به، أو المؤثِّر فيه، وهو طيّعٌ ليّن الحركة، فمتى تكلّم المتكلم نقل الكاشف الحركة أو الحركات نقلاً أميناً، فكشف عن خواص الصوت المنطوق.

ومن الكاشف تنتقل الحركة أو الحركات إلى المدوّن، والمدوّن آلة تشبه القلم، وتتّصل بالكاشف اتصالاً مرناً، يتيح لها أن تتحرك حركات تعدل الحركات الصادرة عن العضو الناطق والمتأثر بالنطق، فيحمل الكاشف هذه الحركات إلى المدوّن ليدوّنها على شكل خطوط تختلف أطوالها وأشكالها باختلاف الأصوات المنطوقة، وهي شبيهة من

حيث المبدأ والغاية بالآلة التي تدوّن نبض المريض وتحوّله إلى خطوط تكشف عن أحوال الشرايين والأوردة والقلب.

والمدوّن مرتبط بالمسجّل، والمسجّل أسطوانة دوّارة حول محورها، وهي تدور دون المدوّن، لكي تتيح له أن يدوّن عليها الخطوط التي تترجم الأصوات المسموعة إلى أشكال مرئية.

تلك هي الآلات التي أهداها علم الفيزياء إلى علم اللسان، وقد أحدث علم الأصوات الفيزيائي ثورة كبيرة في الدرس الصوتي وتقدماً فيه، وذلك بتقديمه هذه الوسائل الجديدة لدراسة الأصوات ووصفها، وحُدّدت نتائج استخدام آلات دراسة الصوت بثلاثة أمور:

أوّلها: الكشف عن حقائق صوتية، لم يستطع علماء اللّغة أن يكتشفوها قبل ظهور هذه الآلات، واقتحامها ميدان البحث اللغوي الصوتي.

وثانيها: تعديل المناهج المتّبعة في الدراسات اللغوية الصوتية، نجم عنه تعديل ملحوظ في بعض الآراء القديمة، وتغيير للانطباعات التي كان يحملها كثير من علماء الصوتيّات.

والثالث: تأكيد بعض الحقائق الموروثة عن السلف، وتأييد كثير مما وصلوا إليه بالطرق التقليدية من نتائج. فقد تبيّن- مثلاً- أن كثيراً مما رواه سيبويه عن شيخه الخليل ابن أحمد الفراهيدي في مخارج الحروف وصفاتها من آراء ونتائج قد بلغت من الدقة والرهافة ما يقارب دقة النتائج التي توصلت إليها الآلات الحديثة السابقة الذكر.[1]

(1) انظر: في علم اللّغة، د.غازي مختار طليمات 33-34.

أمّا صلة علم اللسان بعلم وظائف الأعضاء: فإنّ علم الأصوات الفيزيائي وعلم وظائف الأعضاء أو "علم الأصوات الفيزيولوجي" يلتقيان مع علم اللّغة (اللسانيّات)في دراسة الأصوات، إذ تستخدم الأجهزة العلمية الحديثة في وصف الأصوات وتحليلها، وتحديد مواضع نطقها في أعضاء النطق بدقّة فائقة.

ويهتم علم وظائف الأعضاء أو "علم الأصوات الفيزيولوجي" بدراسة الأعضاء المسمّاة مجازاً أعضاء النطق، ووصفها، ودراسة وظائف الأعضاء الناطقة، وتحليل عملية النطق.

وبهذا يتبين لنا مدى الاتصال بين علم وظائف الأعضاء وعلم اللّغة (اللسانيّات)، فالأول يدرس آلية النطق بدراسته وظائف الأعضاء الناطقة، ويدرس الثاني اللّغة التي تصنعها هذه الأعضاء الناطقة.

وممّا عرضنا يتبيَّن لنا صلة علم اللّغة (اللسانيّات) بعلوم الطبيعة ووظائف الأعضاء، فهو يستعين ببحوث علم الطبيعة في تحليل الصوت والوقوف على خواصّه وقوّته ومدّته وموجاته وذبذباته وانتشاره وما يتصل به، ويستعين بالتشريح والفيزيولوجيا الإنسانية "وظائف أعضاء الإنسان" في الوقوف على مخارج الحروف وتحليل أعضاء النطق والسمع، والوقوف على وظائفها، وكيفية قيامها بهذه الوظائف، واختلافها باختلاف الأمم، واختلافها في الأمة الواحدة باختلاف عصورها، وبيان أثر هذه الظواهر جميعها في اللّغة ونشأتها وتطوّرها. وتشتدّ حاجة علم اللّغة (اللسانيّات) إلى علم الطبيعة والفيزيولوجيا في البحوث الصوتية الخاصة المعروفة بـ"شعبة الفونيتيك".

رابعاً: علم اللّغة (اللسانيّات) والتاريخ:

إنَّ علم اللّغة (اللسانيّات) علمٌ تاريخيٌّ على نحوٍ ما، فاللّغة لا غنى لها في دراسة تطوّرها وصلتها بالمجتمعات عن الاستعانة بمعلومات من التاريخ، ودراسة اللهجات وظهور

العامية مرتبط بالتاريخ.

فلا يمكن تصور علم لسان عامّ متكامل وواقعي إذا أغفلنا نمو اللّغة وتطوّرها ووثائقها التاريخية.

بل إن الدراسات اللغوية التاريخية والمقارنة كانت في مقدمة الأسس المكوّنة لعلم اللسان العام. وخلال مدة طويلة من تاريخ الأبحاث اللغوية كان التركيز على الجانب المكتوب للغة هو السائد والمعتمد في الدرس اللغوي، والوثائق التاريخية اللغوية وجدت في أشكال من النقوش المحفورة على الحجارة والصخور، وفي الألواح الطينية والفخارية، وعلى الرقائق، وكل ذلك يمثّل تسجيلاً لتاريخ الإنسان بوساطة اللّغة، وإنّ تصنيف تلك الوثائق وتقسيم رموزها اللغوية إلى تصويريّة ومقطعيّة ومسمارية وهجائيّة، وتحليل هذه الرموز الوثائقية وكشف أسرارها والوقوف على دقائقها من صميم عمل عالم اللسان، ولكنه عمل في الجانب التاريخي لحياة الإنسان، ولولا جهود علماء اللّغة والاستعانة بنتائج أبحاثهم لبقي الكثير من الحوادث التاريخيّة مجهولاً إلى اليوم.

وإن صلة علم اللّغة (اللسانيّات) بالتاريخ تعطينا صورة صادقة عن تطوّر اللغات ومراحل ذلك التطور وأشكاله، وترسم- إلى حدّ ما- حركة البشر على الأرض بتتبع الظواهر الصوتية واللهجية المتشابهة في هذه البقعة أو تلك من العالم. وإن معرفة الظروف التاريخية التي رافقت أمّة من الأمم، أو أثّرت فيها يمكن أن تفسّر كثيراً من الظواهر اللغويّة في تلك الأمّة. مثال ذلك إحلال كثير من اللغات الاستعمارية محلّ اللغات القومية في بعض من بلدان آسية وإفريقية ثم بقاء كثير من ألفاظ تلك اللغات على الرغم من حصول هذه البلدان على الاستقلال ورحيل المستعمر عنها.

كذلك فإن سلامة التأصيل اللغوي لا تتحقق أحياناً إلا بمعرفة التاريخ أو بالحياة التاريخية للألفاظ، وتعد دراسة التغير الدلالي وما يرتبط بها من إعداد المعاجم التاريخية من

أهمّ مجالات علم اللّغة (اللسانيّات) التاريخي، والمعجم التاريخي هو ذلك المعجم الذي يعطي تاريخ كل كلمة من كلمات اللّغة الواحدة، ويؤرّخ لها ابتداء من أقدم نصّ وردت به إلى آخر نص، يتتبع دلالتها وتغيّرها.

وهذا كله يجعل الصلة بين علم اللّغة (اللسانيّات)والتاريخ صلة قوية لا يمكن إغفالها في أي دراسة علميّة موضوعيّة.

خامساً: علم اللّغة (اللسانيّات) والجغرافيا:

إنّ لطبيعة البلاد والبيئة الجغرافية فيها من سهول وجبال ووديان وألوان ومناخ أثراً في الثقافة العامة، وهذا الأثر لا بدّ أن يترك نتائجه في المسألة اللغوية.

ولذلك برز علم اللّغة (اللسانيّات) الجغرافي Geolinguistics، وهو علم يدرس مجموعة من الظواهر الاجتماعية والحضاريّة والسياسيّة والمستقبليّة في ضوء هذا التوزيع العام للّغات، ويعنى هذا العلم أيضاً بدراسة اللهجات واللغات المحليّة وتأثير اللغات الغازية أو الاستعمارية في اللغات الوطنية، ذلك التأثير الذي قد يؤدي إلى انتشار لغة على حساب لغة أخرى.

ويبحث علم اللّغة (اللسانيّات) الجغرافي أيضاً بالتعايش اللغوي وتأثير طبيعة الأرض والمناخ على طبيعة النطق وصفات الأصوات، فسكّان الجبال أقسى نطقاً من سكان السهول، وبدو الصحراء يؤثرون الأصوات المجهورة على المهموسة، ويحرصون على إخراج الحروف من مخارجها الصحيحة.

فاللّغة ظاهرة اجتماعية تتحرك في إطار تاريخي، وتصطبغ بالطبيعة الجغرافية للمكان الذي تحيا فيه.

سادساً: علم اللّغة (اللسانيات) وبقية العلوم:

اللّغة كائن حيٌّ، تعروها أمراض القوة والضعف وتتّصل بعلوم العصر وقد شهدت في العصر الحديث تطوّراً جديداً، وأخذت الدراسات الحديثة تقترب من التجريب وتبتعد عن التجريد فاكتسب صفة العلميّة واتصلت بعلوم لم تكن الدراسات القديمة توليها أهمية تذكر، فاتصلت بعلم الأجناس البشرية Anthropology فكثير من المسائل المتعلّقة باكتساب اللّغة تستعين بعلم الأجناس البشرية وعلم الوراثة وعلم الحياة العام.[1]

واتصلت اللّغة بالرياضيات، وهذا ما حمل بعضهم على أن يقول: ((ليس هناك ما يمنع من تصوّر اللّغة موضوعاً رياضياً أو اجتماعياً أو نفسياً، وبالتالي تصوّر اللسانيّات جزءاً من الرياضيات))[2].

وربما كانت مدرسة تشومسكي التحويليّة التوليديّة أكثر المدارس احتفالاً بالرياضيات، وأشدّها كلفاً باستخدام المعادلات والأشكال الرياضيّة والرسوم البيانيّة في دراسة اللّغة، ولا سيّما الكلف بتحليل الألفاظ إلى مورفيمات.[3]

ومن ذلك اتصال اللّغة بالحاسوب فنشأت اللسانيات الحاسوبيّة.

---

(1) انظر علم اللّغة، د.محمود السعران 69-70.

(2) اللسانيات واللّغة العربية، د.عبد القادر الفهري الفاسي 41.

(3) انظر في علم اللّغة، د.غازي مختار طليمات 42.

وخلاصة القول:

إنّ علم اللّغة (اللسانيّات) يتّصل بطوائف العلوم المتعدّدة كلها، غير أنّ صلته بالعلوم الاجتماعية أشدّ من صلته بالطوائف الأخرى.

وحاجة علم اللّغة (اللسانيّات) إلى علم الطبيعة (الفيزياء) والفيزيولوجيا(علم وظائف الأعضاء) وعلم الأجناس تشتد في البحوث الخاصة بشعبة الأصوات على حين تشتد حاجته إلى علم الاجتماع وعلم النفس والتاريخ والجغرافيا في البحوث المتعلّقة بعلم الدلالة وحياة اللّغة وما إلى ذلك من أبحاث تتعلق بالمعنى.

الفصل الثاني

مناهج البحث الحديثة في دراسة اللّغة

إن فكرة المنهجيّة في البحث العلمي تعدّ ثمرة من ثمرات النهضة العلمية الحديثة، وقد أخذت الدراسات اللغوية تخطو خطوات واسعة مع مطلع القرن التاسع عشر الميلادي نحو الدراسات العلمية الدقيقة، فتعدّدت المدارس اللغوية وكثر التجديد في المناهج. وربّما كان اكتشاف اللّغة السنسكريتيّة على يد وليام جونز W.Jones ت.1786م، ممهّداً قوياً لانبثاق الدراسات اللغوية اللسانية الحديثة ومناهجها التاريخية والمقارنة.

ومناهج البحث هي تلك المذاهب التي يسلكها الباحث لتقصي الظواهر العلميّة واللغويّة ودراستها حتى يصل إلى نتائج حقيقية وقوانين عامة موضوعيّة، وقد استقرّ حديثاً على أنّ المناهج اللغوية يمكن تصنيفها حسب تاريخ ظهورها إلى:

1- المنهج المقارن.

2- المنهج التاريخي.

3- المنهج الوصفي.

4- وأُضيف إليها مؤخراً التقابلي.

إلاّ أنّ التسلسل العلمي السليم يقتضي أن يكون المنهج الوصفي هو الأسبق وهو ما بدأ به الصينيون والعرب والهنود والإغريق، وسنبدأ به.

أولاً: المنهج الوصفي:

ويسمى أيضاً علم اللّغة (اللسانيّات) الوصفي Discriptive Linguistics

ويعدّ هذا المنهج أوسع المناهج شهرة، وأغناها دراسة ودارسين ومدارس، وهو يُعنى بوصف اللّغة وصفاً علميّاً دقيقاً بعد تحديد مجالها وزمنها وبيئتها.

ويقوم هذا المنهج على الملاحظة المباشرة والاستقراء الواسع والتجربة، ووصف اللّغة كما يسمعها العالم اللغوي من أفواه أصحابها في مختلف أنظمتها التركيبية والصوتية والنحوية وفي مفرداتها، ولكن جلّ اهتمامه ينصرف إلى الأصوات والصيغ للّغة المتكلمة فيصفها وصفاً دقيقاً يتناول بالتفصيل أصغر وحداتها الصوتية التي يمكن أن تلتقطها الأذن أو الآلات الحساسة جداً وصولاً إلى الصيغ والتراكيب، معتمداً في ذلك على الملاحظة المباشرة الذاتية وعلى الآلات التي تمكن الإفادة منها بصورة سليمة.

وقد أقام علماء اللّغة منهجهم الوصفي الحديث على ثلاثة أسس هي: الزمان والمكان والمستوى.

فالزمان قيد يقيّد بداية المادة المدروسة ونهايتها بمدة زمنية معينة، لسبب معروف، وهو أن الظواهر اللغويّة دائمة التغيّر. فإذا لم يحدّد الزمان أدرك التغير الظاهرة قبل أن تبلغ الدراسة غايتها، أو قبل أن تفضي الدراسة بالدارس إلى نتائج محدّدة.

وأمّا المكان فلا بدّ من تحديده أيضاً، لأنّ الظاهرة اللغوية تحيا في بيئة خاصة بها، وتتأثر بالأرض والمناخ والموقع الجغرافي، فإذا لم تحدّد الأرض والبيئة التي تحيا فيها الظاهرة اللغوية المدروسة تختلط اللهجات ويتسع الموضوع المدروس ويتشعّب.

أمّا المستوى وهو الأس الثالث في الدراسة الوصفية، فيعني اختيار الظاهرة المطروحة للبحث من فئة اجتماعية خاصّة، أو عن طبقة محدّدة الثقافة، أو عن فرع من فروع العلم أو الأدب، أو من مستوى أدبي فني عالٍ أو مستوى عاميّ خاصّ.

ومن ذلك مثلاً: دراسة المصطلحات اللغوية الحديثة في الصحافة الأدبية في سوريا خلال الستينيات. أو دراسة التطور الدلالي في حقل معرفي معيّن مثل: الألفاظ الحضارية

أو العسكرية في بلد معين مثل المغرب العربي فترة الاحتلال الفرنسي، أو دراسة ظاهرة الإعراب في مكان محدّد من عالمنا العربي في زماننا الراهن.

ولا بدّ من الإشارة إلى أن المنهج الوصفي لا يتبع طريقة واحدة في البحث ولا يخضع لقواعد ثابتة لا يصيبها التغير، بل قد تشعّب إلى مدارس متعدّدة، لا تلتزم كلها أصولاً ثابتة، بل تتفرّع إلى طرائق، اتّسع بعضها، وبعضها ضيّق ميدانه كثيراً. وتعدّدت صور هذا المنهج واختلفت تحليلاته، وظهرت فيه مذاهب فرعية ومدارس تعتمد لاحقتها على السابقة وتفيد من تجربتها وتنتقدها ثم تبني مدرسة جديدة، وأشهر مدارس المنهج الوصفي ثلاث:

المدرسة البنيويّة، ومدرسة النحو التوليدي التحويلي، ومدرسة القوالب.

وسنتناول هذه المدارس بشيء من الاختصار، لأننا سنبحث في المستوى النحوي والصرفي مذاهب علماء اللّغة المحدثين وتحليلهم البنيوي والتوليدي.

1-المدرسة البنيويّة Structural Linguistics: مؤسس هذه المدرسة عالم اللّغة السويسري فرديناند دو سوسير F.De. Saussure د.ت1913م.

وضع أسس هذه المدرسة في المحاضرات التي ألقاها في جامعة جنيف ونشرها طلابه تحت عنوان "محاضرات أو دروس في علم اللّغة العام" 1916.

وأبرز ما يتجلّى في هذه المحاضرات من المنهج الوصفي:

أ-تحديد المادة المدروسة.

ب-الخروج من التعميم إلى التخصيص.

ج-الفصل بين الكلام واللسان، فالكلام عند دو سوسير: ((كلام الفرد أو المنطوقات الفعليّة التي يقولها إنسان واحد)). أمّا اللّسان فهو: ((المواضعات والإشارات

التي يشترك فيها جميع أفراد مجتمع لغويّ معين، وتتيح لهم من ثمّة الاتصال اللغوي فيما بينهم)).

وبهذا الفصل استطاع دوسوسير أن يميّز المستوى الفردي الذي يتأثّر بذكاء الفرد وثقافته وإرادته "أي الكلام" من المستوى الاجتماعي الذي هو البنية التحتية للغة المشتركة بين أفراد المجتمع، وهي البنية التي يعمل البنيويون على كشفها ووضعها ودراستها، وهي كما يسميها دوسوسير "اللسان".

واللسان عند سوسير نظام من العناصر المترابطة، تشترك في بنائه الأصوات والمفردات والتراكيب على نحو ما، ويتجلى في صورة من الصور، واللّغة عنده شكل لا مادة، وهذا الشكل هو الجدير بالدراسة الوصفية،والدراسة الوصفية للأنظمة اللغوية الشكليّة أساس علم اللّغة (اللسانيّات) عنده وعند من بنى بعده على نظريته البنيوية.

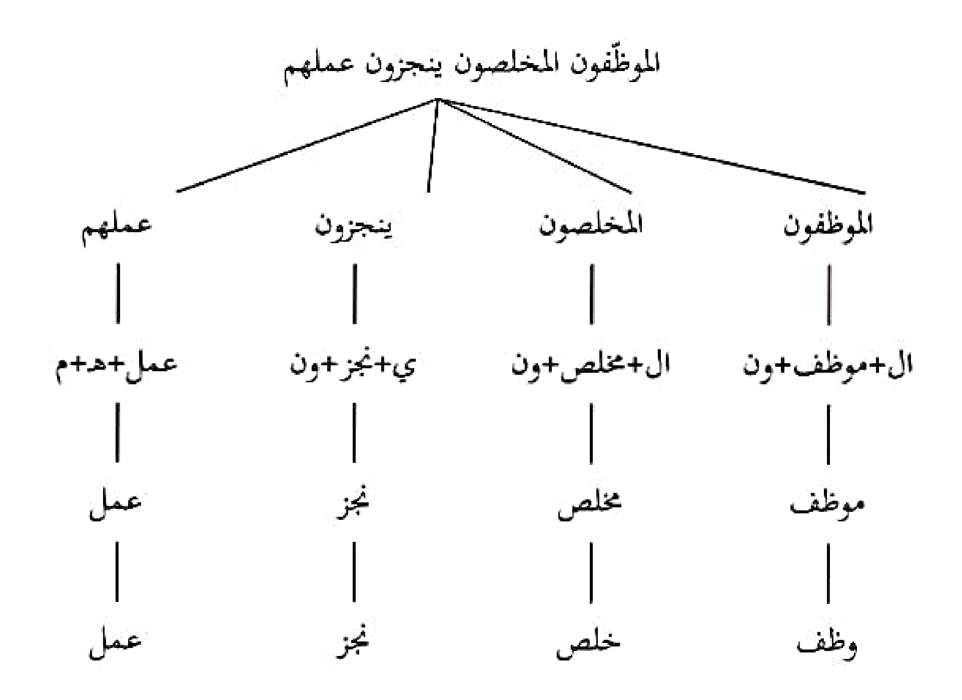
وأبرز المتأثّرين بهذه النظرية فرانز بوز "بواس"F.Boas، فقد اهتم بدراسة الأصوات والنظام الصرفي والصيغ اهتماماً بالغاً، وآمن بأن التحليل الوصفي المجدي في اللّغة هو ذلك الذي ينصب على كلّ لغة على حدة وفقاً لأحوالها الخاصة.

ومن أعلام البنيويّة إدوارد سابير E.Sapir تلميذ بواس، وقد أتمّ ما بدأه أستاذه، أي عمّم ما خصَّصه بواس، ودعا إلى تطبيق المنهج الوصفي البنيوي على اللغات التي تجمعها روابط مشتركة. وأشهر اسم في المدرسة البنيوية ليونارد بلومفيلد L.Bloom Field وكتابه بعنوان "اللّغة" Language نشره عام 1933 واستطاع من خلاله أن يهيمن على ساحة الدراسات اللغوية الغربية طوال ثلاثين عاماً.

وأشهر ما جاء به بلومفيلد اعتقاده أنَّ عالِم اللّغة عين ترصد ما يجري، فعليه أن يقصر عمله على مراقبة الظواهر اللغوية الخارجية التي تقبل القياس، والقياس الذي مارسه

بلومفيلد محدود النطاق يطبّق على الظواهر الشكلية من اللّغة، لأنَّ على العالم اللغوي أن يعنى بأصوات الألفاظ أكثر من عنايته بمعانيها. فكانت دراسة المعاني نقطة الضعف في نظرية بلومفيلد، لأنَّ اللّغة وعاء الفكر وتحليل المبنى لا يغني عن دراسة المعنى.

وأبرز ما في التحليل البنيوي الانتقال من المركب إلى البسيط، ومن البسيط إلى الأبسط، أي: من الجملة كما تسمع من أفواه الناس إلى الكلمات التي تتألف منها هذه الجملة، ومن الكلمات إلى العناصر الصوتية التي تتألف منها كل كلمة. وكل عنصر من العناصر الصوتية يسمى بـ"مورفيم" Morpheme. وفيما يلي جملة محلَّلة على الأسلوب البنيوي:



ويمكن تلخيص أهم سمات بنيوية بلومفيلد وأتباعه بما يلي:

1- أهم موضوعاتها دراسة النصوص اللغوية.

2- منهجها وصفي يعتمد على وسائل الاستكشاف.

3- هدف الدراسة تصنيف العناصر اللغوية المدروسة.

4- الشكل عندهم أهم من المعنى، والشكل يختلف من لغة إلى لغة فلكل لغة بنية خاصة تتفرد بها.(1)

هذه أبرز سمات المدرسة البنيوية، وسيأتي في المستوى النحوي والصرفي أمثلة أخرى عنها.

2-مدرسة النحو التوليدي التحويلي Transformational Generative Grammar: ظهرت هذه المدرسة نتيجة لدراسات قام بها اثنان من اللغويين الأمريكيين وهما: زيليغ هاريس Z.S.Harris واضع النظرية التحويلية Transformational Theory وثانيهما أفرام نعوم تشومسكي A.N.Chomesky صاحب علم اللّغة التوليدي Generative Linguistics.

ولعلّ أبرز سمات هذه المدرسة الوصفيّة أنّها جعلت موضوعها قدرة المتكلم على إنشاء جمل لم تطرق سمعه من قبل، وأنها تبنّت أسلوباً وصفيّاً يجمع بين الحدس والتخمين من ناحية، وإجراء الاختبار لتقويم الفروض المتعارضة من ناحية أخرى. وأنّها رمت إلى تحقيق غاية محدّدة وهي دراسة السلاسل اللفظية للتمييز بين ما يشكّل منها جملاً مفيدة ومالا يشكل مثل هذه الجمل، والكشف عن القواعد النحويّة الكامنة وراء بناء الجمل.

---

(1) انظر: الألسنة العامة، د.ريمون طحان 53/2، والمدخل إلى علم اللّغة، د.رمضان عبد التواب 187، وفي علم اللّغة، د.غازي مختار طليمات 112.

ومن مبادئ المدرسة التحويلية التوليدية انطلاقها في دراسة الجملة من أساس مفترض وهو وجود علاقة بين الكلمات المتلاصقة أي المتتابعة بانتظام، وهذا الافتراض غير مطّرد، إذ يمكن أن يؤدّي إلى توليد جمل غير مقبولة. وهنا يأتي دور الحدس اللغوي العفوي الذي يحتكم إليه المرء فيما يجوز أو لا يجوز من الجمل المولّدة.

وعلى هذا النحو من العناية بالشكل أقام تشومسكي مذهبه التحويلي التوليدي وقد طوّر تشومسكي نظريته التحويلية التوليدية أكثر من مرة، ولقيت هذه النظرية نقداً كثيراً، وذُكِر أن المآخذ التي أخذت على فكر تشومسكي اللغوي قد بلغت ثمانية وعشرين مأخذاً.(1)

3-مدرسة القوالب Tagmeme Analysis: تعد هذه المدرسة ثالث المدارس الوصفيّة التحليلية، لكنها لا تسرف في التحليل إسراف بلومفيلد وتشومسكي.

يرى أصحاب هذه المدرسة ((أنّ مهمة علم القواعد في أسسه الأوّلية تتمثّل في إعطاء نموذج أو نقل صورة لجانب الكفاءة اللغوية))(2).

ويقوم أصحاب هذه المدرسة بتحليل وصفي أقلّ تعقيداً من سابقيه، وأشدّ حفاظاً على البنية التقليدية للجملة، فالتحليل اللغوي في هذه المدرسة طائفة من الإجراءات لوصف اللّغة يعتمد على وحدة أساسية تسمّى القالب Tagmemeوترد هذه الوحدة ضمن مركّب على هيئة سلسلة وتقع ضمن مستويات معينة من المستويات النحوية.

ومعنى القالب هو الارتباط بين الموضع الوظيفي وفئة من المركبات التي تشغل هذا الموقع، والمواقع الوظيفيةيمكن أن تكون متنقلة المواضع في السلسلة اللغوية. ففي قولك:

---

(1) انظر: كتاب "تشومسكي "فكره اللغوي وآراء النقاد فيه"، د.صبري إبراهيم السيد 347.

(2) انظر: في علم اللّغة، د.غازي مختار طليمات 116.

ضرب زيدٌ عمراً، ثلاثة مواقع وظيفية تحتمل التنقّل، وهي موقع المسند "ضرب" وموقع المسند إليه "زيد" وموقع المفعول به "عمراً" ومواضع هذه المواقع تحتمل الترتيب على صور ثلاث هي:

1- ضرب زيدٌ عمراً.
2- ضرب عمراً زيدٌ.
3- عمراً ضرب زيدٌ.

وهذا التغيير أصاب المواضع، ولكنه حافظ على المواقع الوظيفية النحوية، أي: إن تغيير الترتيب لم يغيّر الوظيفة النحوية التي اضطلع بها كل قالب.

ويرى أصحاب هذه المدرسة التي طوّرها كنيث بايك K.Pike أن كل موقع وظيفي يمكن أن يشغله أكثر من شاغل، فتستطيع مثلاً أن تجعل المسند إليه في الجملة الاسمية اسماً ظاهراً، كأن تقول: محمّد صائم، وضميراً، نحو: هو صائم، ومصدراً مؤولاً، نحو قوله تعالى: [وأَنْ تصوموا خيرٌ لكم].

ويقتضي المنهج الوصفي الذي انتهجته هذه المدرسة بالتمييز بين القوالب وتقسيمها إلى أنواع، أهمّها: القالب الإجباري الذي لا بد من ظهوره في كل بنية لغوية تنتمي إليه، مثل: الفعل والفاعل.

والقالب الاختياري وهو الذي يحق له أن يظهر وأن يختفي كالمفعول به.

والقالب الثانوي وهو الذي يأتي تكملة، ولا ينعقد به إسناد كالظرف والجار والمجرور...(1)

---

(1) انظر: المدخل إلى علم اللّغة، د.رمضان عبد التواب 193، وفي علم اللّغة، د.غازي طليمات 116، 117.

وهذه المدرسة لم تلق اهتماماً بالغاً كالذي لقيته المدارس اللغوية الأخرى.

ثانياً: المنهج التاريخي:

إنّ المفهوم العام للمنهج التاريخي هو البحث عن الأصول التاريخية لكثير من الظواهر اللغوية وما يعتريها من تغيّر في أنظمتها الصوتيّة والصرفيّة والنحويّة والدّلالية، محاولاً رصد العوامل المؤثرة في ذلك التغيير ومدى هذا التأثير وسرعته وأشكاله، ومقدار صلته بالأحداث التاريخية الكبرى التي تتعاقب على اللّغة المدروسة. من ذلك مثلاً: دراسة التغيّر الذي قد يحدث في الأصوات من إعلال وإبدال ونبر وتنغيم، وأسباب هذا التغير، وهل ترجع إلى مسلك فردي بسبب التقليد، أو إلى أثر البيئة كأن تميل إلى ترقيق نطق الكلام، أو إلى طغيان لهجة معينة، أو إلى أثر دخيل...، ومن ثمّ دراسة هذا الأثر في اللّغة، ودراسة أشكال التغيّر ومظاهره وإمكان استنباط قوانين صوتية منه، أو استخلاص العادات الصوتية لأصحاب اللّغة، أو كشف أثر الدخيل فيها.

ولا يُعنى المنهج التاريخي بدراسة النشأة الأولى للغة الإنسانيّة ولا يتعقّب تطوّرها البطيء طوال ألوف السنين، لأنّ علماء اللّغة بعد اختلافهم غير المجدي في نشأة اللّغة قرّروا الإقلاع عن الخوض في هذا الموضوع، لأنّ كلّ ما قيل فيه متعارض متناقض، ولا يفضي إلى نتائج علميّة مقبولة، ولا يستند إلى واقع لغوي تُستمد منه عناصر الدّراسة.

وإذا كان المنهج الوصفي يدرس اللّغة دراسة مقيّدة بقيدي الزمان والمكان وقيد المستوى، فالمنهج التاريخي يفك عن يدي اللّغة هذه القيود، فيطلقها من إسار المكان ويترك لها حرّيّة التنقّل ليرصد ما يجري فيها من تبدّل ويفتح لها الزمان ليتعقّب ما يصيب أصواتها ودلالاتها وأساليبها وتراكيبها، ويتفلت من قيد المستوى المحدد، فاللّغة في المنهج التاريخي لها مستويات متعدّدة لا مستوى واحد.

فالمنهج التاريخي يدرس اللّغة دراسة طوليّة، بمعنى أنّه يتتبّع الظاهرة اللغويّة في عصور مختلفة وأماكن متعدِّدة ليرى ما أصابها من التطوّر، محاولاً الوقوف على سرّ هذا التطوّر وقوانينه المختلفة، فهو منهج يؤمن بالحركة لا الثبات. ويضع اللّغة في موضعها من الحياة التي تتفاعل عناصرها وتؤثّر في اللّغة.

وحركية المنهج التاريخي المناقضة لثبات المنهج الوصفي لا تعني تناقض المنهجين في كلّ شيء، فكلاهما يدرس اللّغة دراسة تسجيل ومراقبة، تصف الواقع الحيّ، أو القديم الموروث، ولا يدرسها دراسة معياريّة تحتكم إلى القواعد المسبقة لتحكم على الظاهرة المدروسة بالخطأ، أو تحكم لها بالصواب، وكلاهما يربط اللّغة بالبيئة والمجتمع المتغيرين باستمرار.

واعتماداً على أوجه الشبه هذه يمكن القول: إن المنهج التاريخي منهجٌ وصفيٌّ، متعدِّد المراحل، متجدِّد المادّة، لأنه يلاحق اللّغة، ويستعين على دراستها بتراثها القديم ونصوصها الحيّة.

مثال: دراسة الأصوات العربية بدءاً من تحديد الصفات والمخارج كما أثبتها الخليل وسيبويه، ثم الانتقال إلى وصف ما أصابها من تغيّر بسبب اختلاط العرب بالأعاجم عبر العصور من القديم إلى العصر الحاضر، باختصار، مع استقراء كلام العرب وتسجيل للأصوات وفق الآلات الحديثة، دون المفاضلة بين مستويات الفصاحة أو الأداء اللغوي بين فصيح وعامّي، مع عدم الاكتراث بالمعياريّة ومقاييس الخطأ والصواب، ومحاولة الوصول إلى أسس صوتية مشتركة بين اللهجات أو الكشف عن التطور في الأصوات وتحديد الانحرافات الصوتية الحاصلة بين البلدان العربية في نطق بعض الأصوات مثل الجيم المصرية والخليجية، أو تأريخ صوت الضاد الزاحفة نحو الظاء، أو الذال والثاء الزاحفتين نحو أحرف الصفير، كل هذه الأمور من واجب المنهج التاريخي تحديدها زمنياً ومكانياً

والبحث عن أسبابها والكشف عن العوامل التي أدّت إليها والتأصيل اللغوي لها.[1]

وعلى عالم اللّغة التاريخي التزوّد بحصيلة كافية من الوثائق والنقوش المكتوبة بأشكال الكتابة المختلفة أنّى وجدت شريطة التأكد من حجّيّتها وسلامتها من الزيف.

ثالثاً: المنهج المقارن Comparative Method:

يقوم المنهج المقارن على الموازنة بين الظواهر اللغوية في طائفة من اللغات لاستنباط خواصها المشتركة، وللوقوف على وجوه الاتفاق والخلاف في عواملها ونتائجها، وللوصول من وراء هذا كله إلى كشف القوانين العامة الخاضعة لها في مختلف مظاهرها.[2]

ويعدّ المنهج المقارن فاتحة لطائفة كبيرة من ألوان البحث اللغوي الذي بدأ الاهتمام بها منذ مطلع القرن التاسع عشر، أمّا نشأة هذا العلم فتبدأ مع المقارنات اللغوية واكتشاف صلات القرابة بين اللغات الهندية الأوربية والمجموعة السامية الحامية.

وأبرز من درس الصلات بين اللغات، وقارن بينها، الإنجليزي وليم جونز الذي أعلن عام 1860 أنّ السنسكريتية واليونانية واللاتينية تنتسب إلى لغة واحدة، ومهّد السبيل بذلك للمنهج المقارن ليحتلّ مكانة مرموقة في الدرس اللغوي، ولعلّ الفضل الأكبر في نموّ هذا المنهج وشيوعه يعود إلى العالم الألماني شليجل الذي وضع عام 1808 كتابه "عن اللّغة والمعرفة عند الهنود" ودعا إلى الاهتمام بالنحو المقارن، ومن أعلام هذا المنهج أيضاً الألماني فرانز بوب.

ومن أسس هذا المنهج المقارن:

أولاً– أن المقارنة والموازنة لا تعقد بين لغتين تنتميان إلى أسرتين مختلفتين كالعربية

---

(1) انظر: دراسات في اللّغة د.مسعود بوبو، 53، وفي علم اللّغة، د.غازي طليمات 39.

(2) انظر: علم اللّغة، د.علي عبد الواحد وافي 45.

السامية والإيطالية اللاتينية، وإنما تعقد بين لغتين تجمعهما وحدة الأصل كالإيطالية والفرنسية اللاتينيتين، والعربية والعبرية الساميتين.

ثانياً– أن الموازنة لا تعقد بين الظواهر اللغوية التي تطوّرت حتى أبلغها التطوّر مرحلة من الاختلاف بلغت حدّ التدابر والتنافر، بل تعقد بين الظواهر أو الصيغ القديمة الأولى التي يغلب على ظنِّ الباحث أنّها من الموروث المشترك المتحدر من اللّغة الأم التي أنجبت اللغتين.

ثالثاً– أن الغرض من الموازنة استنباط الخواص المشتركة، وهذه الخواص أعمق من استعارة الألفاظ، فالعربية مثلاً أعارت الفارسية (وهي من الفصيلة الهندوأوربية) والتركية (وهي من الفصيلة الطورانية) كثيراً من المفردات، ولكنها لم تعرها أصواتها وصيغها وأساليبها في بناء الجمل، ولهذا لا جدوى من مقارنة العربية بهذه اللغات.

رابعاً– الغرض من المقارنة الوصول إلى أوجه الشبه وأوجه الخلاف بين اللغتين، وتحديد العوامل الاجتماعية والسياسية والدينية والجغرافية التي أدت إلى وجود هذا الخلاف والتميز بين اللغتين.

خامساً– أنّ الارتقاء بالنتائج التي تنتج عن الدراسات المقارنة بين لغتين متحدرتين من أسرة واحدة تمهّد السبيل لمعرفة الأسس اللغوية الإنسانية العامة التي تجمع اللغات جميعها، وتحدِّد سيرها وتطوّرها.[1]

ومن مظاهر المنهج المقارن ما يسمّى عند المحدثين "علم اللّغة التقابلي" contrastive Linguistics أو "المنهج التقابلي" وهو أحدث المناهج اللسانيّة، ويتناول لغتين أو لهجتين أو مستويين من الكلام بالدرس العلمي للوصول إلى الفروق

---

(1) انظر: في علم اللغة 121.

الموضوعيّة بين الطرفين اللذين تبنى عليهما الدراسة، وقد نشأ هذا العلم أو المنهج أصلاً لمحاولة التغلب على صعوبة تعليم اللغات لغير أبنائها، ودراسة اللغات الأجنبية وتعليمها. ولذلك لا يشترط في هذا المنهج أن يكون خاصّاً بدراسة اللغات التي تنتمي إلى أسرة لغوية واحدة. فالدراسة التي تقابل بين خصائص الجملة في الإنجليزية من جهة والعربية الفصحى من جهة أخرى تعدّ دراسة تقابليّة. ويقاس على ذلك الدراسات الأخرى التي تقابل بين لغتين أو لهجتين في أيّ ظاهرة أو قطاع من قطاعات الدرس اللغوي. فالمقارنة بين لغة أجنبية يتعلمها الإنسان وبين لغته الأصلية أو لهجته أو طريقته في النطق للوقوف على أوجه الاختلاف بين اللغتين أو لمعرفة الصعوبات التي تعيق إتقان اللّغة الجديدة من مظاهر علم اللّغة التقابلي.

وتوظّف الدراسات التي تُنْشَأ على هذا النحو التقابلي في مجال علم اللّغة التطبيقي الذي يضع ثمار الدراسات التقابلية النظرية في برامج تطبيقية تسهّل تعليم اللغات.

الفصل الثالث

مستويات الدرس اللّغوي اللساني الحديث

إنّ الدّراسة العلميّة للّغة أصبحت تعتمد على أسس منهجيّة معروفة عند جميع المتخصّصين في هذا الميدان، ولعلّ المستويات الأكثر عموماً في دراسة اللّغة هي:

1- المستوى الصوتي.

2- المستوى الصرفي.

3- المستوى النحوي.

4- المستوى الدلالي.

وتحسن الإشارة إلى أنّ الفصل بين مستويات البحث ليس فصلاً حادّاً بالقدر الذي يجعل كل مستوى مستقلاً عن الآخر، بل إنّ هذه المستويات تتقارب وتتعاون لتصل بالبحث اللغوي إلى حقائق علمية كليّة ومنهجٍ لغويٍّ متكامل.

أولاً: المستوى الصوتي:

تمهيد:

يذهب علماء اللّغة المحدثون إلى أن دراسة الأصوات هي الخطوة الأولى التي ينبغي أن نبدأ بها لفهم طبيعة الظاهرة اللغوية فهماً علميّاً يقوم على أساس اعتبارها نظاماً من الرموز الصوتية.

وتتّصف اللغات جميعها بكونها كلاماً منطوقاً يتداول مشافهة، فقد عرف الإنسان الكلام المنطوق قبل أن يخترع الكتابة بأحقاب طويلة، ومع أنّ توصّل الإنسان إلى الكتابة

أمر مهم جداً على صعيد العلم والحضارة، فإنّه لم يقلّل من أهمية المشافهة في تداول اللغات ونقلها من جيل إلى آخر، ومعظم علماء اللّغة المحدثون يرون أنّ من البدهي أن تأتي دراسة الكلام أوّلاً، أمّا اللّغة المكتوبة فتأتي في المرتبة الثانية لأنّها مشتقّة من الكلام، بل هي تمثيل له.

ولعلّ الشعوب الكنعانية ولا سيّما الفينيقيين هم أوّل من أدرك العناصر الصوتية المؤلفة للّغة وكان اختراع الأبجدية الحدث الأهم في تاريخ البشرية. نقف عند الهنود فقد اهتموا بوصف الأصوات وذلك في إطار حفاظهم على اللّغة السنسكريتية لغة الاحتفالات الدينية والكنائس.

فنجد عند اللغوي بانيني Panini الذي عاش حوالي القرن الرابع أو الخامس قبل الميلاد وصفاً للأصوات وبياناً لأعضاء النطق وتعييناً لصفات الحروف ومخارجها. وقد ترجم كتابه بعد فترة طويلة في أوربا على يد بوتلينج Botlingk (1815-1840م)[1].

وقد فطن علماء العربية إلى دراسة الأصوات ووصفها وتصنيفها في وقت مبكّر، وقد احتلت دراستهم للأصوات مكانة متميزة نظراً لقدمها وتنوّعها واختلاف المشتغلين بها على مرّ العصور، ويشهد لهم في هذا الميدان علماء غربيّون محدثون منهم برجشترآسر الألماني الذي يقول: ((لم يسبق الأوربيين في هذا العلم إلاّ قومان: العرب والهنود)).

ويرى عالم اللّغة الانجليزي فيرث أنّ ((علم الأصوات قد نما وشبَّ في خدمة لغتين مقدّستين هما السنسكريتية والعربيّة))[2].

---

(1) انظر تاريخ علم اللّغة: مونان 78.

(2) انظر البحث اللغوي عند العرب، د.أحمد مختار عمر 84.

وتعزى بداية الاشتغال بالدراسات الصوتية عند العرب إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي ت"175هـ" الذي كان له اهتمام واسع بالأصوات والموسيقا، وتابع الخليل في الاهتمام بالأصوات أصحاب المعاجم والقراءات والتجويد والبلاغة، حتى خلص علماء العربية إلى تصنيف الأصوات بدقة وتحديد مخارجها وصفاتها اعتماداً منهم على الملاحظة الذاتية الخالصة. وبقي هذا التصنيف الصوتي للحروف ومخارجها وصفاتها وفق ما جاء به علماء العربية عامة وعلماء التجويد والقرءات القرآنية خاصة من أدق ما وصل في دراسة الأصوات، وعلى كثير من ملاحظاتهم بُنيت المباحث الحديثة في مخارج الحروف وصفاتها.

ومع ذلك لا يمكن إنكار ما قدمه الغربيون للدرس اللساني الحديث من فائدة وتطوير في استخدام التقنيات الحديثة وأجهزة السمع والتسجيل وآلات رصد الصوت وتنوّع مناهج الدرس الصوتي، حتى بدا الدرس اللساني الحديث الغربي للأصوات، فبدا عند كثير من الباحثين جديداً مبتكراً إذا ما قورن بالدرس العربي، ولعلّ نشاط علماء الصوتيات الغربيين في العصر الحديث، وسعيهم إلى إنشاء اللسانيات العامة التي تُعنى بالكليات اللغوية والأصوات التي يشترك الناس فيها جميعاً مع استخدام أحدث التقنيات الصوتية، مع تقصير بعض الباحثين العرب واعتمادهم على ما جاء به الغربيون أدّى إلى ارتقاء الدرس الصوتي الغربي وتبوئه مكان الصدارة في الدراسات اللغوية.

مصطلحات الدرس الصوتي الحديث عند علماء الغرب:

الصّوت فيزيائياً ظاهرة طبيعيّة تنشأ عن اهتزاز الأجسام، وندركه عن طريق حاسة السّمع. أمّا الصوت اللغوي فهو ((أثر سمعي تنتجه أعضاء النطق الإنساني إرادياً في صورة ذبذبات، نتيجة لأوضاع وحركات معيّنة لهذه الأعضاء)).

ويدرس علم الصوت اللغوي ((الصوت الإنساني من حيث النطق به، وكيفيّة صدوره، ومخرجه، وصفته، وانتقاله في موجات صوتيّة عبر الهواء، واستقباله في أذن السامع

من حيث موقع الصوت في الكلمة، ومجاورته لغيره، وتأثره به، وتأثيره فيه))[1].

وقد عرف الدرس الصوتي الحديث عند الأوربين مصطلحين رئيسين هما:

1- علم الأصوات العام General Phonetics

2- علم الأصوات الخاص Phonology

وسنتناول كلّ مصطلح على حدة للتعرف على حدود المصطلح ومجالات استخدامه.

أولاً: علم الأصوات العام General Phonetics: وقد ترجم هذا المصطلح "الفونيتيكس" إلى العربية بـ"علم الأصوات العام"، و"علم الأصوات اللغوية" و"الصوتيّات"، و"منهج الأصوات"، و"الصوتيّة" وغيرها.

ومصطلح علم الأصوات "الفونيتيكس" phonetics هو من أقدم المصطلحات الصوتية والأكثر تداولاً وشيوعاً في الدراسات اللغوية، بل ربّما كان هو الأشمل عند إطلاق التسمية على الأبحاث الصوتية في نظر معظم اللغويين.

ويستعمل فرديناند دوسوسير Saussure "ت1913م" (الفونيتيك) للدلالة على العلم التاريخي الذي يحلل الأحداث والتغيرات والتطوّرات عبر السنين، وهو لذلك جزء من اللسانيّات. لكن مدرسة براغ اللغوية التي تأسّست عام "1926م" ولاسيما تروبتسكوي Troubetzkoy "1938" استعملت (الفونيتكس) عكس استعمال دوسوسير، إذ رأت أنه ليس علماً لسانيّاً بل هو مساعد للسانيّات، لأنّه يدرس الأصوات دراسة علميّة لا تخصّ لغة بعينها. ثمّ شاع في الدراسات الانجليزية والأمريكيّة استعمال (الفونيتيك) بمعنى العلم الذي يدرس الأصوات الكلاميّة ويصنّفها ويحلّلها من غير إشارة

(1) انظر: في علم اللّغة، د.غازي طليمات 127.

إلى تطوّرها التاريخي، فهو بذلك فرع من اللسانيّات الوصفيّة.

ومعظم اللسانيين حدّدوا علم الأصوات (الفونيتيك) بأنه العلم الذي يدرس أصوات الكلام دراسة علميّة لا تتّصل بالوظائف اللغوية، وهو علم يدرس أصوات اللّغة مستفيداً من علوم الفيزياء والتشريح ووظائف الأعضاء والصوت، وهذه الدراسة لا تستقل بلغة محدّدة، أو تعقد على لغة بعينها، إنما تصلح للتطبيق على اللغات عامّة.

ولا بدّ من الإشارة إلى أن الدارس العربي مضطر إلى استخدام المصطلح الأجنبي phonetics جنباً إلى جنب مع المصطلح العربي البديل "علم الأصوات اللغوي" أو "الصوتيّات، حتى إنّ بعض الدارسين أبقوه دون تعريب وكتبوه بحرف عربي (فونتيك) وشاع في معظم كتب علماء اللسانيات.

ويقسم علم الأصوات اللغوي العام (الفونتيك) إلى أربعة أقسام:

1- علم الأصوات النطقي **phonetics Articulation** أو الفيزيولوجي.

ويدرس مخارج الأصوات الكلاميّة وطريقة نطقها، ويبين أعضاء النطق ويصف عملها، ويصنّف صفاتها.

2- علم الأصوات الفيزيائي **phonetics acoustic** أو السمعي.

ويدرس الموجات الصوتيّة الصادرة عن جهاز النطق وانتقالها إلى الأذن، والعوامل المؤثرة في ذلك من النواحي الفيزيائيّة.

3- علم الأصوات السمعي **phonetics auditive** أو الإصغائي.

ويدرس جهاز السمع عند الإنسان، ويحلِّل العمليّة السمعيّة، ويوضِّح ماهيّة الإدراك السمعي وأثره في وصف الأصوات.

4- علم الأصوات التجريبي **phonetics experimental** أو المعملي.

ويدرس خصائص الأصوات الكلاميّة باستخدام الأجهزة وصور الأشعة وغير ذلك من أدوات مخبرية متعدِّدة.

ولا بدّ من إضافة الفيزيولوجيا العصبيّة والدماغيّة إلى هذه الدراسة المتكاملة للأصوات، وهذا ما تفعله الدراسات الحديثة في الغرب.

غير أنّ الدارسين اللسانيين يصبون اهتمامهم على علم الأصوات النطقي والسمعي لأنهم يحتاجون هذا العلم في التحليل اللساني للكلام، أمّا الجوانب الفيزيائية والطبّيّة الدقيقة فلا يولونها كثيراً من عنايتهم.

ولذلك سنقف عند أهمّ الموضوعات التي عني بها علم الأصوات النطقي من حديث عن أعضاء النطق ومخارج الأصوات وتقسيمها إلى زمرٍ وفق المخارج.

علم الأصوات النطقي:

علم لغوي يدرس الأصوات اللغوية من حيث المخارج والصفات، ثمّ يقدم نتائجه للصوتيات التشكيلية التي تُعنى بائتلاف الوحدات الصوتية في مقاطع وصيغ، وما يلحق ذلك من ظواهر صوتية مساعدة.

ويستمد علم الأصوات النطقي كثيراً من أدواته الدرسيّة من علوم التشريح والفيزياء والطب وغيرها.

وقد عرف علماء العرب الأوائل أعضاء الجهاز النطقي ووصفوها وصفاً دقيقاً، وحددوا المخارج ورتبوها ترتيباً صحيحاً، قريباً جداً لترتيب علماء اللّغة في العصر الحديث، على نحو ما رأيناه عند سيبويه وابن جني وعلماء التجويد. وعرّف ابن جني الصوت الإنساني العام بقوله: ((الصوت عَرَضٌ يخرج مع النفس مستطيلاً متصلاً، حتى يعرض له

في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته))[1]، ولسنا بصدد التفصيل في الحديث عن أعضاء جهاز النطق ومخارج الحروف وصفاتها عند علماء العرب، فقد أفردنا لها حديثاً في الكتاب المقرّر للفصل الأول "فقه اللّغة العربيّة" لكن نشير إلى أنّ جهاز النطق يبدأ من الرئتين وينتهي بالشفتين مروراً بالقصبة الهوائية والحنجرة واللسان والشفتين والتجويف الأنفي.

ومخارج الحروف عند سيبويه وابن جني وكثير من علماء التجويد تسير وفق النحو التالي:

1-ثلاثة مخارج للحلق، الأول: أقصى الحلق، وهو للهمزة والهاء والثاني: أوسط الحلق، وهو للعين والحاء، والثالث: أدنى الحلق، وهو للغين والخاء.

2-من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى مخرج القاف.

3-من أسفل من موضع القاف من اللسان قليلاً وما يليه من الحنك الأعلى مخرج الكاف.

4-من وسط اللِّسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى مخرج الجيم والشين والياء.

5-من بين أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس مخرج الضاد.

6-من حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان وما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى مخرج اللام.

7-من طرف اللسان بينه وبين ما فويق الثنايا مخرج النون.

8-من مخرج النون غير أنّه أدخل في ظهر اللسان قليلاً لانحرافه إلى اللام مخرج الراء.

---

(1) سر الصناعة 61/1.

9-ممّا بين طرف اللسان وأصول الثنايا مخرج الطاء والدال والتاء.

10-ممّا بين طرف اللسان وفويق الثنايا مخرج الزاي والسين والصاد.

11-ممّا بين طرف اللسان وأطراف الثنايا مخرج الظاء والذال والثاء.

12-من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا مخرج الفاء.

13-ممّا بين الشفتين مخرج الباء والميم والواو.

14-من الخياشيم مخرج النون الخفيفة.

وليس بين ترتيب سيبويه والترتيب الحديث اختلاف ملحوظ على الرغم من استخدام علم الأصوات الحديث الوسائل الفيزيائية والمعملية والتقنية الحديثة.

وممّا تقدّم نلاحظ أنَّ علم الأصوات العام General Phonetics علم لساني يهتم بالدراسة العلميّة للأصوات من جوانبها النطقيّة والفيزيائيّة والسمعية والتجريبيّة، فهو أقرب إلى مفهوم العلوم، وقد ارتبط الدرس الصوتي بمصطلح آخر هو مصطلح Phonology أو علم الأصوات الخاص التشكيلي على ما سنراه.

ثانياً: علم الأصوات الخاص التشكيلي Phonology:

يطلق هذا المصطلح على العلم اللساني الذي يختصّ بدراسة أصوات لغة معيّنة للوصول إلى طرق ائتلافها ونظام تركيبها وما يتّصل بذلك من فروق.

وقد وضع أصول هذا العلم عالم اللّغة الروسي تروبتسكوي "ت1938م" وقد حدّد هذا العالم مهمّة الفونولوجيا phonology ببحث العناصر الصوتية ضمن مجموعة العلاقات التي يفرضها نظام اللّغة المدروسة، وصولاً إلى بيان الوظيفة التي تؤدّيها العناصر مجتمعة، وعُدّت الفونولوجيا عند تروبتسكوي أحد الأصول البنيوية التي شاعت في الدراسات الغربية على اختلافها.

ويشير منهج التحليل الفونولوجي التركيبي ((وهو الذي ينتقل من الجزء إلى الكل)) إلى إمكانية تقسيم الوحدات الصوتية إلى الأقسام التالية:

1-الفونيم phoneme

2-المقطع syllable

3-مجموعة النبر stress group

4-المجموعة النغميّة tone group

5-المجموعة النَّفَسية breath group

6-الجملة الفونولوجية phonological sentence

وسنعرض للوحدات الصوتية الأربع الأولى لارتباطها بالدرس الصوتي اللغوي من جهة، ولوجود أسس علمية لتحليها من جهة أخرى. أما الوحدات الخامسة والسادسة فلن نقف عليهما لأنّ الأسس في تحليلهما متعدّدة ومختلفة فيما بينها. فالمجموعة النَّفَسيّة: هي تتابع صوتي تحدِّد بدايته ونهايته طاقة النَّفَس، والجملة الفونولوجية تفوق المجموعة النفسية وتقابل الفقرة الموجودة في اللّغة المكتوبة.

1-الوحدة الصوتية "الفونيم":

الفونيم: إحدى وحدات الكلام الصغرى، بل هو أصغر وحدة صوتية يمكن عن طريقها التفريق بين المعاني، وقد دخل هذا المصطلح الحديث الدرس العربي الحديث وترجم إلى أكثر من لفظ، فقد ترجم إلى:

"وحدة صوتية"، "صوتون"، "صوتيم"، "لافظ"، "فونيم"...

ويعدّ الفونيم أساس التحليل الفونولوجي الحديث، وقد ظهر هذا المصطلح عام 1873، نتيجة ازدياد مناهج البحث في اللّغة وميلها إلى الدقة والتفصيل، مستفيدة من

تطور الأجهزة التقنية والمخابر اللغويّة.

وقد كان مصطلح "الفونيم" موضع جدل وخلاف، فبعضهم ينظر إليه نظرة عقلية أو نفسيّة، أي: يحاول إدراكه بالعقل والتصوّر، وبعضهم ينظر إليه نظرة مادية تتّجه إلى خصائصه وتحقّقه الأدائي في السياق الصوتي للغة من اللغات، وبعضهم ينظر إليه من خلال وظيفته في التمييز أو التفريق بين المعاني.

ولكن أشهر تعريف له هو أنّه أصغر وحدة صوتية قادرة على التفريق بين المعاني، أو كل صوت يؤدّي استبداله بصوت آخر، إلى تغيير دلالي، كقولنا في العربية:

(موقد)، و(موقع) فالدال فونيم، والعين فونيم، وبإبدال أحدهما من الآخر نفرق بين المعنيين، وكذلك كلمتي (سيف) و(صيف) اللَّتين تفرّق بين معنيهما اعتماداً على اختلاف الفونيم (س) و(ص) فيهما.

ولا ينبغي أن نفهم من المثالين السابقين أن الوحدة الصوتية أو (الفونيم) هي (الحرف) فقط، بل يمكن أن يكون الفونيم (حركةً)، فكلمة (بَر) و(بُر) و(بِر) باختلاف الحركات، كل حركة تمثل فونيماً مختلفاً يؤدي استبدال أحدها بالآخر إلى تغيير الدلالة. ويمكن أن يفهم الفونيم من سياق الكلام عبر إعطاء الكلمة في السياق نبراً خاصاً يحوّل المعنى إلى ضدِه، أو يفرّق بين معنى وآخر فيكون الفونيم إشارة صوتية منطوقة كما هو الحال في لفظ (عاقل) مثلاً الذي تعني إعمال العقل في الأمور، وتؤدِّي المعنى المخالف حين التعجب أو التهكم أو السخرية.

وثمّة مصطلح يرتبط بالفونيم وهو الألوفون **Allophone** وهو أبسط من الفونيم وأصغر منه، بمعنى: أنّه عنصر من عناصر الفونيم ولكن تغييره لا يفرّق بين المعاني، فهو عنصر لا أثر له في تحديد المعنى وقد ترجم الألوفون إلى العربية فقيل: صوتم تعاملي، وصويتون وصورة صوتيّة.

ومن الأمثلة التي تساق عن الألوفون اللهجات العربية في أصوات بعض الحروف، مثل: القاف يمكن أن تنطق من أقصى اللسان وهي الفصيحة كما في القراءات القرآنية المسموعة الآن، وأن تنطق قريبة من الهمزة عند كثير من الحضر المحدثين، أو تنطق كافاً خالصة في بعض أنحاء فلسطين، وأن تنطق قريباً من صوت "g" المشابه للجيم اليمنية أو القاهرية..

فهذه الصور يمكن أن يحلّ أيّ منها محلّ الآخر دون المساس بالمعنى. ونرى الألوفون أيضاً في صور الإمالة والإبدال والإدغام والإعلال وتسهيل الهمزة وتحقيقها.

ويبقى الفونيم الوحدة الصوتية الأبرز في التحليل الصوتي الحديث ولاسيما عند علماء الغرب، أما الباحثون العرب فلم يجمعوا على جعل الفونيم أساساً للتحليل اللغوي الصوتي، وفضّل بعضهم العدول عنه إلى الحرف.

ومهما قيل عن "الفونيم" من آراء توهن قيمته في التحليل الصوتي لما اعتراه من اضطراب واختلاف إلّا أنّ له فوائد عمليّة لا يستهان بها، وأبرزها:

1-أنّه يساعد على إيجاد كتابة دقيقة حين يُخصّص رمز واحدٌ لكل فونيم مع استحداث علامات كتابية مساعدة للدلالة على الصفات البارزة أو الصور الصوتية الفرعية أو التغييرات التركيبية مثلاً: في أواخر سنة 1996م ظهرت المصاحف التي اتبع طابعوها أسلوباً يشبه هذا الأسلوب لمساعدة القراء المبتدئين على إتقان أحكام التجويد من إظهار وإخفاء وقلقلة ومدّ، غير أنّ القرّاء المجوّدين لم يجدوا فيها ما يغني عن التلقي والمشافهة، لأنّ الأصل في قراءة القرآن الكريم السماع.

2-أنّه يضع الدارس على بداية العناصر اللغويّة التي تؤدّي وظائف دلاليّة قبل الشروع في بحث الكلمة والجملة.

3-أنّه يعين على تعلّم اللّغة عن طريق النطق الصحيح الذي لا يقتصر على غير الناطقين باللّغة المعنيّة، بل يتعدّى ذلك إلى أبناء اللّغة الذين يقفون على الخصائص النطقية لصور الفونيم في أثناء التركيب.

4-أنّه يفسّر بعض مسائل المعجم الناتجة عن وجود كلمات أو مداخل متقاربة أو مترادفة بسبب استبدال فونيم بآخر نحو "صقر وسقر" أو بسبب بعض التغييرات التركيبية التي تعتري الأصوات بالإبدال والإدغام، كما يفسّر كثيراً من الظواهر الصرفية ذات المنشأ الصوتي، كمسائل الإعلال والإمالة والوقف.[1]

2-المقطع syllable:

يمثّل المقطع درجة أعلى في سلّم الوحدات الصوتية "الفونولوجية" لأنّ المقطع: مجموعة من الأصوات المفردة أو الفونيمات، مرتبة ترتيباً معيّناً بحسب كل لغة، تتألّف من صوت طليق "صائت" مع صوت حبيس "صامت" أو أكثر.

فالمقطع شكل من أشكال تجمّع الفونيمات وتوزّعها في الكلام بين صامت وصائت.

ولما كان الصائت أوضح في السمع من الصامت، فقد جعلت الصوائت قمّة الوضوح السمعي في بنية المقاطع، وأحلت الصوامت مكانة ثانوية.[2]

---

(1) انظر: مبادئ اللسانيات 153، 154.

(2) الصوائت: ست: ثلاث هي الحركات الأساسية في اللّغة وهي الفتحة والضمة والكسرة، وتسمّى أصوات صائتة قصيرة أو صوائت قصيرة وثلاث طويلة، وهي حروف المد، ((ألف ما قبلها مفتوح، وواو مضموم ما قبلها، وياء ما قبلها مكسور)) وتسمى صوائت طويلة أما الصوامت فهي الحروف الأساسية.

وتختلف أشكال المقطع من لغة إلى أخرى تبعاً للقواعد التي تحتكم إليها كل لغة في التشكيل الصوتي. وقد ذكر المتخصِّصون أشكالاً متعدّدة من لغات مختلفة.

ففي العربية خمسة أشكال من المقاطع هي:

1-صامت+صائت قصير، مثل: قِ، عِ، وهو مقطع قصير مفتوح.

2-صامت+صائت طويل، مثل: في، بي، وهو مقطع متوسط مفتوح.

3-صامت+صائت قصير+صامت، مثل: مِنْ، وهو مقطع متوسط مغلق.

4-صامت+صائت طويل+صامت، مثل: بابْ، وهو مقطع طويل مغلق.

5-صامت+صائت قصير+صامت+صامت، مثل: عَبْدْ. وهو مقطع طويل مضاعف الإغلاق.(1)

ويلاحظ أنّ الأنواع الثلاثة الأولى هي الشائعة في الكلام العربي، إذ تتكوّن منها الكثرة الغالبة منه، أمّا النوعان الأخيران فقليلا الشيوع، ولا يكونان إلا في أواخر الكلمات وحين الوقف.

وأقل ما تتركب من الكلمة العربية هو مقطع واحد، وأكثره سبعة مقاطع.

ويعدّ المقطع وسيلة من وسائل التحليل الصوتي وتشكيل الكلام، ولكنه ليس ظاهرة فريدة ابتدعها المحدثون الغربيون، فقد أدرك علماؤنا العرب بنية المقطع الصوتي

---

(1) يوصف المقطع بالمفتوح إذا انتهى بصائت طويل أو قصير.
ومغلق إذا انتهى بصامت.
ومضاعف الإغلاق إذا انتهى بصامتين.
وقصير إن تألف من صامت وصائت قصير.
متوسط إن تألف من صامت وصائت طويل، أو من صامتين وصائت قصير.
وطويل إن تألف من صامتين أو أكثر مع صائت طويل، أو ثلاثة صوامت مع صائت قصير.

ووضعوا له المصطلح الدال عليه وهو "المقطع" على نحو ما وجد عند الخليل بن أحمد الفراهيدي "175هـ" والفارابي "339هـ" وابن رشد "595هـ". ولكننا لا نقف على بحث حول المقطع مقعد مقصود في الدراسات العربية القديمة. ويكشف الوقوف على مقاطع كل لغة كثيراً من الخصائص التركيبية، ويفسر عديداً من الظواهر الصرفية ذات المنشأ الصوتي، كما يوضّح الأساس الذي انبثقت عنه الأنماط النغميّة الموسيقية للشعر، وقد دلّت دراسة المقطع في العربية الفصحى على عدد من الخصائص المهمة، أبرزها:

1-أنّ المقطع العربي لا بدّ أن يبدأ بصامت.

2-لا يجوز أن يبدأ المقطع بصامتين.

3-لا تزيد مقاطع الكلمة المجرّدة من اللواحق على أربعة إلا نادراً.

4-أكثر ما يمكن أن تتركب منه الكلمة هو سبعة مقاطع مع كلِّ زيادة، نحو: [فَسَيَكْفيكَهُم الله][1].

5-أقل ما تتركب منه الكلمة (الأداة) هو مقطع واحد.[2]

3-النبر stress:

تتّصل بالمقطع ظاهرة صوتية أخرى يسميها علم الصوت التشكيلي "النبر" ويعرّف النبر بأنّه نشاط فجائي يعتري أعضاء النطق في أثناء التلفظ بمقطع من مقاطع الكلمة، وهو وضوح نسبي لصوت أو مقطع إذا قورن ببقية الأصوات والمقاطع المجاورة له، لأن النطق حين النبر يصحبه نشاط كبير في أعضاء النطق جميعها في وقت واحد، ويترتّب على ذلك أن الصوت يغدو عالياً واضحاً في السمع.

---

(1) سورة البقرة 137/2.

(2) انظر: مبادئ اللسانيات 160.

ويعدّ النبر في بعض اللغات فونيماً، لأنّه يفرّق بين معنى وآخر، ففي اللّغةالانجليزية مثلاً، تغيّر النبر في الكلمة قد ينقلها من زمرة الأسماء إلى الأفعال، مثال كلمة "Import" التي تعد اسماً حين ينبر المقطع الأول منها، على حين تغدو فعلاً إذا نبر المقطع الثاني، كذلك الشأن في كلمة "Report"، إذا قصرت صوت "o" ونبرت المقطع الأول كانت اسماً بمعنى: تقرير، وإن أطلته ونبرت المقطع الثاني أصبحت فعلاً بمعنى: يقدّم تقريراً.

وليس في اللغات التي تستعمل النبر فونيماً موقع محدّد للنبر، إذ يكون موضع النبر فيها حرّاً.

وعلى الرغم من خلوّ الدراسات اللغوية العربية- بحسب ما انتهى إلينا- من بحث مقعّد للنبر إلا أنّه من الغلوّ والإجحاف أن يقول بعض المستشرقين: ((نبر الكلمة فكرة مجهولة تماماً لدى النحاة العرب، بل لن نجد له اسماً في سائر مصطلحاتهم))[1]. لأنّ هناك إشارات مهمة للنبر لدى بعض علماء العرب وفلاسفتهم كابن سينا[2]، وكذلك فإنّ القراءات القرآنية قد نظرت إلى النبر بعين العناية من الناحية الصوتية، فله موضع ثابت يرتبط بعدد المقاطع ونوعها وتوزعها.

وأهم قواعد نبر الكلمات في العربية هي:

1-يقع النبر في الكلمات الأحادية المقطع على مقطعها الأول، نحو قُمْ، قُلْ.

2-يقع النبر في الكلمات الثنائية المقطع على مقطعها الأول، نحو قام، عنها.

3-يقع النبر في الكلمات الثلاثية المقطع على مقطعها الثاني إذا كان متوسطاً أو طويلاً، نحو: يَسْتعدي، تعالى.

---

(1) العربية الفصحى: هنري فليش 49، تعريب عبد الصبور شاهين.

(2) انظر: التفكير اللساني: للمسدّي 265، 266.

وهذه القواعد في النبر تقريبية، وليست قطعيّة أو مطّردة، كقواعد النحو والصرف، لأن الدرس الذي أنتجها درس محدث لا يشمل الكلام العربي المتعدّد المستويات.

4-التنغيم Intonation:

إذا كان النبر يخص مقطعاً من مقاطع الكلمة الواحدة، فإن التنغيم إعطاء الكلمات المنسوقة في عبارة تامة إيقاعاً خاصاً، وتناغماً معيّناً ينتظم أركان الجملة، وإعطاء الكلام نغمات (tones) معينة، تنتج من اختلاف درجة الصوت، وتتحدّد درجة الصوت وفق عدد الذبذبات التي يولّدها الوتران الصوتيان.

وإعطاء العبارات نغمات معينة ناجم نفسياً عن عاطفة يحسّها المتكلّم، وفكرياً عن معنى يعتلج في ذهنه، وعضوياً عن تغيّر في عدد الهزات التي تسري في وتري الحنجرة.

وللنغمة من حيث الدرجة أربعة أنواع هي:

1-النغمة المنخفضة Low.

2-النغمة العادية Normal.

3-النغمة العالية High.

4-النغمة العالية جداً أو فوق العالية Extra-high.

ويرى الباحثون أن معظم اللغات تنغيمية، وللتنغيم فيها وظائف نحوية ومعنوية فنغمة تعني التوكيد، وأخرى تفصح عن التعجب وبعضها للاستفهام أو للتهديد.

ولم يحظ التنغيم في العربية ببحث مستفيض أو تطبيق مستند إلى قواعد محددة، ولكن هذا لا يعني أن التراث الواسع العربي لا توجد فيه إشارات ونصوص تدلّ على معرفة العرب بالتنغيم، وأثره في تحوير العبارة الواحدة من معنى إلى معنى، أو من أسلوب إلى أسلوب.

فيرى الأستاذ سعيد الأفغاني- رحمه الله- أن ابن جنّي أدرك أثر التنغيم في تغيير العبارات والجمل، وقال: ((ترد الجملة عن العرب، فيجعلها بعضهم تقريراً، وبعضهم استفهاماً حذفت أداته، وبعضهم استفهاماً أريد به الإنكار والتهكم... ولو ورد مع النص حال المتكلم لانقطع الخلاف، وما أظنّه يريد بحال المتكلم إلا طريقة التنغيم وأسلوب الأداء))[1].

ومن أكثر الباحثين المحدثين احتفالاً بالتنغيم د.تمّام حسّان الذي دعا إلى دراسة التنغيم ضمن الأطر الأربعة التالية:

1-شكل النغمة، وهو إما صاعد وإما هابط وإمّا ثابت.

2-المدى، وهو المسافة بين أعلى نغمة وأخفضها سعة وضيقاً.

3-اللحن، وهو مجموعة النغمات في المجموعة الكلامية على الصعيد الأفقي.

4-الميزان وهو النموذج التنغيمي الذي يشمل المدى واللحن.

وعندما درس د.تمّام تنغيم العربية ضمن الأطر السابقة وصل إلى أنّ في الكلام العربي ستة موازين يضبط بها التنغيم:

أوّلها: إيجابي هابط، يتجلّى في تأكيد الإثبات، وتأكيد الاستفهام بكيف وأين ومتى وبقية الأدوات عدا الهمزة وهل.

ثانيها: إيجابي صاعد، يتمثل في تأكيد الاستفهام بالهمزة وهل.

ثالثها: نسبي هابط، يستعمل في الإثبات غير المؤكّد، كالكلام الجاري في التحية والنداء وتفصيل المعدودات.

رابعها: نسبي صاعد، نلحظه في الاستفهام بغير أداة، أو بالهمزة وهل.

(1) في أصول النحو: سعيد الأفغاني 93، 94.

خامسها: سلبي هابط: يستعمل في الكلام الجاري في التأسُّف والإشفاق والتحسر والتسليم، مع خفض الصوت.

سادسها: سلبي صاعد: يستعمل في التمني والعتاب والرجاء واللوم، مع نغمة ثابتة أعلى مما قبلها.[1]

وبحث التنغيم مازال بحاجة إلى دراسة معمّقة ونماذج تطبيقية متعددة المستويات حتى يستطيع الباحث والقارئ وضع قوالب تنغيمية للقراءة والإلقاء والخطاب.

إنّ التعريف الموجز السابق بأهمّ المصطلحات في الدرس الصوتي يرمي إلى بيان مقدار الصلة الوثيقة بين الأصوات العامة والتشكيلية وبين علم اللّغة العام، ويمهّد للتدليل على أنّ البحث اللغوي لا يمكن أن يستكمل دون الإفادة من نتائج الدراسات الصوتية في تعليل كثير من ظواهر اللغات وتحسين وسائل الاتصال والتثقيف الحديثة المسموعة، فضلاً عن أن المنهج العلمي المقبول أو المتصوّر حديثاً هو أن يبدأ علماء اللّغة بدراسة الأصوات ثم الصيغ فالتراكيب والأساليب الصرفية والنحوية والدلالية، ليكون المنهج اللغوي العلميّ تكامليّاً. ولذلك سننتقل إلى المستوى الصرفي والنحوي ليكون البحث اللغوي دقيقاً وعلمياً كاملاً.

ثانياً: المستوى الصرفي في التحليل اللساني:

علم الصرف: هو العلم الذي يبحث في طرائق بناء الكلمة، وما يطرأ على هذا البناء من تغيّرات لفظية، وهو علم توليدي لأنه يولّد من الأصول القليلة كلمات كثيرة وهي مادة اللغة التي يستخدمها أهل اللغة الواحدة. وهو علم تصنيفي؛ فمادّته تصنّف تبعاً للوظائف والدلالات.

---

(1) انظر: مناهج البحث: د.تمام حسان 198 وما بعدها.

الصرف والأصوات:

إنّ الصرف متصل اتّصالاً وثيقاً بالصوتيات، ولا سيما بالجانب الفونولوجي. وذلك لأن أي إجراء صرفي يلحق بالجذر لا بد أن يصحبه تغيير في البنية الصوتية له. وقد يتطلب هذا التغيير نقل الحركة من موقع لآخر أو إسقاطها أو إبدالها بحركة أخرى. مثل كلمة "كتاب" تُجمع على كُتُب. وكلمة جنود تُجمع على جُند. والتصريف في العربية للفعل يتطلب أحد الأمرين إمّا إبقاء حركة العين في الفعل المضارع على ما كانت عليه في الماضي أو تغييرها بحركة أخرى.

فَتح = يفتَح، كسَر = يَكْسِر، نصَر = يَنْصُر

فَرِحَ = يَفْرَح، كَسَب = يَكسِب

حَسُنَ = يَحْسُن

وأكثر الظواهر التي تحدث عنها الصرفيون والنحاة في أبواب القلب والإعلال والإبدال والهمز والإدغام هي قواعد صرفية- صوتية، فإسقاط الواو في مثل (قُل) و(قُم) والياء في (بِع) والألف في (خَف) هي ظواهر فونولوجية ناتجة عن تقصير الصائت الطويل. وكذلك إسقاط الضم من نهاية الفعل المضارع في نحو (يغزو) والياء في (يرمي) هو تغيير فونولوجي، ينشأ عن إسقاط الصائت القصير، إما لتجنب الثقل وتوالي الأمثال، مثل: (يدنو)، أو تجنب الانتقال من الأمامي إلى الخلفي في مثل يرمي ويبني ويأتي.

وكذلك إبدال التاء طاء في صيغة افتعل من الأفعال الثلاثية المبدوءة بأحد حروف الإطباق وهي: الصاد والطاء والظاء والضاد، لا يعدو كونه ضرباً من التماثل بين الصوت المرقق (المنفتح) وهو التاء، والأصوات المطبقة المذكورة، ففقد هذا الصوت صفة الانفتاح وكسب صفة الإطباق ليكون العمل من وجه واحد. وظاهرة التماثل هي من الظواهر الفونولوجية التي ركّز البحث فيها علماء الصوت كثيراً.

المورفيم: هو أصغر وحدة لغوية مجرَّدة ذات معنى دلالي أو نحوي في الكلمة أو الجملة.

أنواع المورفيم– نظراً إلى الظهور وعدمه– فرعان، هما:

1- **المورفيم المستتر**، وينقسم إلى:

– **المورفيم الصفري:** هو أن تتغير دلالة الجذر أو معناه أو استعماله من غير حاجة إلى المورفيم: مثل كلمة "ظهير" تدل على الجمع والمفرد، كقوله تعالى: [قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ(1)]، وقوله تعالى أيضاً: [فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وجِبْرِيلُ وصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ والْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ(2)]، فقد استعملت في الآية جمعاً لا مفرداً من غير حاجة إلى المورفيم. وكذلك كلمة (الفُلك) فإنّها تطلق على الجمع والمفرد وعلى المذكّر والمؤنث. وكذلك ما يستوي فيه المذكر والمؤنث (صبور، حامل) وكقولنا: ادرس جيداً، فالفاعل ضمير مخاطب ولم نذكره.

فالمورفيم الصفري ذو طبيعة تركيبية، لا صرفية بنائية، بمعنى أنّ التركيب هو الذي يظهر تقدير المورفيم عن طريقه، فالضمير المستتر لا يظهر إلا عن طريق التركيب. وكذلك السياق هو الذي يبين لنا المورفيم المقصود في الأمثلة الأخرى المذكورة.

– **المورفيم المفرّغ:** الأصل في المورفيم أن يؤدي وظيفة نحوية أو صرفية، ولكنه قد يكف عن أداء هذه الوظيفة، فيُفرّغ منها، ومن أمثلة ذلك في العربية (أل) التي تفرغ من وظيفتها التعريفية إذا أخذنا بقول من ذهب إلى أنّ أداة التعريف تفقد قيمتها التعريفية إذا ألصقت بالأعلام كما في: القاهرة، والرباط، والحسن والحسين.

---

(1) القصص 17/28.

(2) التحريم 4/66.

ومن المورفيمات التي يمكن أن تعدّ مفرغة في الإنجليزية، أداة النفي /no/ في مثل قولهم: .I didn't drink no juice today فإذا لم تكن هذه الأداة مفرّغة من معناها، وهو النفي، أصبح معناها خطأ، لأنّها تصبح نفيَ الإثبات وهو عكس المقصود.(1)

2- **المورفيم الظاهر:** وهو الواقع في دائرة النطق المتحصّل عليه بالسمع دون تقدير، مثل: (الأرض، الرجل، وهو).

أنواع المورفيم من حيث وروده في السياق: (مورفيمات حرّة- مورفيمات مقيّدة):

وقد ذهب بعض اللغويين إلى أنّ تقسيم المورفيم إلى: حرٍّ ومقيَّد، يصلح للتطبيق على اللغات التي يكثر فيها ورود الجذور مجرّدة في كلمات مستقلة في السياق، ولا يصلح للغات التي يندر استعمال الجذور فيها مجردة، كما هو الحال في اللاتينية واليونانية والروسية.

1- **المورفيمات الحرّة:** وهي تمثل الكلمات المجرّدة (الجذور) الخالية من الزيادة والتسكين، والحذف.

وسُمِّيت كذلك لسببين:

- لأنّها ظاهرة، وتستعمل في الكلام مستقلة ومنفردة عن أي مورفيم آخر، دون أن تفقد وظيفتها اللغوية.

---

(1) اللسانيات، المجال والوظيفة والمنهج، 112.

– لأنَّها تستعمل في أي موقع من التركيب، في الموضع الذي يختاره المتكلِّم أو الكاتب. فقد تكون فاعلاً أو مفعولاً أو اسماً مجروراً، مثل: هذا، هو...

2- المورفيمات المقيَّدة: المورفيم المقيَّد وهو علامة لغوية (صوتية) تتألف من فونيم واحد أو أكثر، أو من مقطع صوتي واحد قصير أو طويل، مغلق أو مفتوح، يضاف إلى المورفيم الحر للحصول على صيغة (بنية) صرفية جديدة منه. أو لأداء وظيفة نحوية.

وقد سُمِّي مقيَّداً لسببين:

– لأنّه لا يظهر في الكلام ولا في الكتابة إلا مُتَّحداً مع المورفيم الحر، أو متَّصلاً منه بسبب، أي إنَّه لا يستعمل مستقلاً منفصلاً عن غيره مثلما هو الحال في المورفيم الحر.

– لأنَّ هذا النوع من المورفيم لا يستخدم إلا في موضع معين من التركيب يحدِّده لنا النحو أو المعجم أو علم الصرف نفسه. فأداة التعريف بالعربية وهي مورفيم مقيد لا يمكن وضعها مثلاً بعد الاسم. وإنَّما ينبغي أن تلتصق بالصوت الأول الذي يبدأ به الاسم، وقد علّمتنا هذا الأمر قواعدُ اللغة، فقد أسندت إلى هذه الأداة وظيفة التعريف بشرط أن تتّصل بالأسماء وأن تكون البادئة.

وفي اللغة الانكليزية مرّ هناك مورفيم الجمع وهو صوت (s) لكنه إذا استعمل منفرداً لا قيمة له إلا في أنه يميز ذاته من الأصوات المجاورة، فهو مختلف عن (c- z)، ولكنه إذا ألصق بكلمة cats، حوّل الكلمة من المفرد إلى الجمع. ولكن لو قلنا scat لكان استعمالاً خاطئاً وغير مقبول.[1]

والمورفيم هنا يأتي في ثلاثة مواضع:

---

(1) اللسانيات ونحو النص، إبراهيم خليل ص73.

1- **السوابق:** وتسمى بـ(Prefixes) وأمثلتها في العربية كثيرة، منها حروف المضارعة، وهمزة التعدية في وزن أفعل، والميم في وزن مفعول من الثلاثي ونحو ذلك.

2- **الدواخل:** وتسمى بـ(Infixes) وأمثلتها في العربية عديدة، منها: (تاء الافتعال، والتضعيف في فعّل، وألف فاعل من الثلاثي للدلالة على اسم فاعل).

3- **اللواحق:** وهي ما يعرف بـ(Suffixes) ومن أمثلتها في العربية الضمائر المتّصلة، ونون الوقاية، وحركات الإعراب وحروفه).

وهكذا يطّرد في الجمع والتثنية ضرب من المورفيم تحددِّه لنا قواعدُ اللغة، وتحدِّده قواعد الصرف والنحو. ولا يقوى أحد على وضع هذا المورفيم في أول الكلمة بدلاً من آخرها، لكونه مقيَّد الوظيفة والاستعمال.

وظائف المورفيم الصرفي:

إن للمورفيم الصرفي وظائف عدّة منها:

- تحديد الحالة الإعرابية كوجود الواو والنون في الجمع.
- التذكير والتأنيث: مثل التاء نحو عالمة وطالبة.
- تحديد زمن الفعل: أو تحويله من الماضي إلى المضارع أو المستقبل... أو المبني للمجهول. جلس، يجلس، نجلس، اجلس، سيجلس. (جالس) مع الانتباه إلى أنّ بعض هذه المورفيمات، وهي في الغالب إما ياء أو تاء أو همزة والسين التي للتسويف، تحدِّد في الوقت ذاته نوع الفاعل وجنسه، فالهمزة للفاعل المتكلم، والنون للجمع المتكلم، والياء للغائب، والتاء للغائبة والمخاطب...، وفي الإنكليزية نجد مورفيمات عدّة ed- s- en- will- shall.
- بيان التفاوت أو المفاضلة في الصفة في العربية: نحو أكبر من، والأكبر.

- التصغير: وهو إضافة ياء بعد الصوت الثاني من الأصوات التي يتألّف منها الجذر المجرَّد من الزيادات فنقول: كتاب، كتيّب.(1)

أنواع المورفيم من حيث عدد الوظائف التي يقوم بها:

ينقسم المورفيم من حيث الوظائف النطقية والنحوية والدلالية التي تسند إليه إلى فروع عدّة، منها:

- المورفيم ذو وظيفة واحدة ثابتة، مثل: (هذا- هو) فكل واحد من هذه المورفيمات يرد بمعنى واحد تقريباً.

- المورفيم متعدّد الوظيفة: وهو كثير في اللغات جداً. ففي العربية التاء تدلّ، وهي لاحقة، على تأنيث الاسم، وفي أول الفعل المضارع تدل على المضارع الذي فاعله مؤنث أو مخاطب مذكّر، وهي تؤدي وظيفة التأنيث في بعض الأسماء الدالة على الجمع، في مثل: القياصرة، وعلى التكثير والمبالغة، في مثل: علاّمة، وعلى التمييز بين اسم الجنس الجمعي والمفرد، في مثل: شجر وشجرة.

وفي الإنكليزية الصوت (s) يستخدم للدلالة على الجمع، وعلى الملكية، والإضافة، في نحو Ahmad's book وللدلالة على أنّ الفعل فعل مضارع مع الضميرين he- she.

- المورفيم الوظيفي: وهو مورفيم يتمّ إقحامه في الكلمة لتحسين النطق، مثل: نون الوقاية، وميم العماد، ويشبهها أيضاً إقحام الهاء في جمع أم، أمهات.

---

(1) اللسانيات ونحو النص، إبراهيم خليل ص 77.

– المورفيم التمييزي: وهو مورفيم لا يستعمل إلا في كلمات نصّ عليها المعجم، مثل النسبة إلى طبرية نقول: طبرانيّ، وإلى الريّ: رازيّ، رغم أن النسبة في العربية تكون بياء مشددة فقط مثل عربيّ.

والمورفيم الظاهر– باعتبار تاريخ اللغة– نوعان:

– باق غير مندثر، كما هو حال أكثر المورفيمات الباقية في الاستعمال.

– ما دلَّ على مرحلة تاريخية مندثرة ويسمى المورفيم المتحجر، وهذا النوع يفيد في دراسة تاريخ لغة ما، ومنه في العربية إلزام المثنى الألف رفعاً ونصباً وجراً، فلا شك أن تلك لهجة عربية قديمة، ولكنها كانت مستعملة في وقت ما، ويفيد هذا النوع من المورفيمات في البحث التاريخي المقارن؛ لأنه يكشف عن علاقات كانت قائمة بين لغتين من اللغات التي تنتمي إلى أسرة واحدة.

– وجدير بالذكر الإشارة إلى أنّ الصوت الواحد قد يؤدي وظيفة دلالية، في حال وجوده في الكلمة، وهنا ينظر إليه على أنه وحدة صوتية مؤثرة في المعنى، فهو لذلك فونيم. وينظر إليه كذلك على أنه جزء من الكلمة. وينظر إليه على أنه وحدة صرفية ذات معنى. فهو مورفيم. هذا الصوت الذي يؤدي وظيفة صوتية، وأخرى صرفية، يسمى مورفوفونيم. ومن أمثلته في العربية ألف المثنى، سواء أكانت ضميراً كما في (قاما) أم علامة تثنية كما في المثنى (الرجلان) وكذلك (النون) التي هي علامة الرفع في الأفعال الخمسة، هي في الحقيقة مورفوفونيم؛ لأنها تدل على معنى نحوي.[1]

وعليه نجد أن المورفيمات مؤلفة مما يأتي:[2]

---

(1) اللسانيات، المجال والمنهج والوظيفة، سمير شريف استيتة ص119.

(2) مبادئ اللسانيات، أحمد محمد قدور، 203.

1- من حركة (صوت- صائت قصير-)، نحو: (كُتِب)، إذ في هذه الكلمة حركتان، لكل منهما وظيفة في الدلالة على صيغة المجهول، فهما صوتان يشكلان مورفيم الصيغة الصرفية.

2- من حرف، وهو مبنى زائد على أصول الكلمات، كالألف في (قاتل)، والهمزة في (أمهل)، والتضعيف في (علّم). أو أكثر، نحو الألف والتاء في (اجتمع) والتاء والألف في (تعاون) وغيرها مما يجري مجراها.

3- من حرف له بالكلمة شبه من حيث الاستقلال الشكلي، ويدعى في النحو بالأداة (وهو واحد من حروف المعاني) نحو الباء والتاء والواو واللام والسين في قولنا: (بالله) و(تالله) و(والله) و(لنا ماض زاهر) و(سيكون من بعد عسر يسر). ونحو همزة الاستفهام والنداء وبعض حروف العطف وكل ما يتركب من حرف واحد بحسب اصطلاح القدماء.

4- من علامة ذات مبنى معيّن تستخدم كلاحقة تصريفية، كعلامات التثنية والجمع السالم والتأنيث بالتاء، أو سابقة تحدد معنى التعريف أو الموصولية، نحو ألف ولام التعريف في قولنا: (البلد) وألف ولام الموصول في قولنا: (الضارب).

5- من أداة تتألف من حرفين أو أكثر. ويدخل هنا كل ما درسه النحاة تحت باب الأدوات.

6- من مجموعات من الكلمات الجامدة ذوات الوظائف الصرفية والنحوية الخاصة، كالضمائر المنفصلة والمتصلة وأسماء الإشارة والموصول.

7- من كلمات ذات أصول معجمية اشتقاقية تم تفريغها واستخدمت استخدام الأدوات، نحو كان وأخواتها، وأفعال المقاربة والرجاء والشروع.

8- من الصيغة الصرفية التي تتألف من الحروف الأصول والزوائد معاً، نحو صيغة

(افتعل) كاملة حروفها مع الضبط بالحركات، فالأصول المنتمية إلى المادة المعجمية التي تدخل الوحدة الدلالية وهو ما يسمى بالميزان الصرفي ب(فعل) للثلاثي و(فعلل) للرباعي، أما المكونات الأخرى فهي ما ندعوه بالحروف الزائدة؛ وهي تعدّ مورفيمات تؤدي وظائف معروفة.

ومثال عليها كلمة (استُجمِعتْ) في قولنا: (استجمعت الطاقات للتصدي للأعداء) وميزانها الصرفي: استفعلت، وحين نسقط علامة التأنيث- وهي مورفيم تصريفي- لأنها غير لازمة للصيغة، إذ جاءت للمطابقة بين الفعل والفاعل تبقى الصيغة بتمامها: استفعل، وهي مورفيم كلّي تستخدمه العربية قالباً لصبّ الكلمات، ومعناه محدّد دون احتساب معنى الكلمة التي تصبّ فيه. غير أن المعنى في المحصلة هو مجموع معنى الكلمة ومعنى المورفيم، وذلك عندما نلفظ (استجمع) مثلاً.

ثم ننظر فيما هو زائد على الأصول (فَعَل)، فنرى أن الألف والسين والتاء هي الزوائد التي لحقت الأصل، وشكّلت معه مبنى الصيغة الكلي.

ولأنَّ هذه الحروف قابلة للعزل والإلصاق فهي تعدّ مورفيمات ذات دلالة معيّنة كالطلب والصيرورة ونحو ذلك.

ونحلِّل أخيراً ما ندعوه بالحركات (الصوائت القصيرة) ولا سيما ما يؤثر في المبنى ليدلّ على وظيفة إضافية كالبناء للمجهول، وهو ما عبّرت عنه الضمة (فوق) التاء والكسرة (تحت) الميم في الفعل الماضي. فهما مورفيمان لهما ما يبرر وجودهما.

9- من مبنى مقدر أي ما يُسمى بالعلم الحديث المورفيم الصفري. ويكون عندما تدلّ الصيغة أو العلاقات على مبنى محذوف، لكنه ذو وظيفة راهنة. نحو وجود المورفيم الدال على الغائب المفرد في صيغة الماضي ووجود المورفيم الدالّ على المخاطب المذكّر في نحو "اكتب" أي: أنت، والمتكلم المفرد في المضارع، نحو: "أَكْتُبُ" أي: أنا. ووجود مورفيم

النفي مقدراً مع بقاء وظيفته في السياق، كقوله تعالى: [قَالُواْ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ][1] أي لا تفتأ، بسبب لزوم النفي لهذا الفعل الناقص. وكقول امرئ القيس، وهو من الشواهد النحوية المعروفة:

فقلت يمين الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي[2]

وخلاصة القول: إنَّ المورفيمات عناصر لغوية غير معجمية، إذ لا معنى لها خارج وظيفتها في الدلالة على المقولات الصرفية أو النحوية.

الصرف والنحو:

لا نستطيع دراسة النحو بمعزل عن الصرف وكذلك لا يمكننا أن نتناول الصرف في معزل عن قواعد النحو، وقد أكَّد زيلغ هاريس Harris على ذلك، فتصريف الأفعال مع الضمائر لا يخلو؛ على الرغم من أنه مسألة صرفية خالصة؛ من مراعاة لبعض قواعد النحو.

ففي العربية لا نستطيع القول: ضرب إياه اللصُّ، ولا يقال: استقبل هو المدير. وفي الإنكليزية لا نستطيع القول: I hit he.

وكان سوسير قد فرق بين الصرف والنحو تفريقاً يؤكّد الوحدة بينهما بدلاً من توضيح الفرق، يقول: التفريق بين النحو والصرف على أساس الوظيفة تفريق خادع، فالادّعاء بأنّ النحو موضوعه الوظائف المنوطة بالوحدات اللغوية (الكلمات، والأدوات) وفقاً لموقعها من التركيب، وأن الصرف موضوعه شكل هذه الوحدات، زعم باطل، إذ لا فرق بين الأشكال والوظائف، فالاسم يستمد وظيفته النحوية- فاعلاً أو مفعولاً- من

---

(1) يوسف 85/12.

(2) البيت في ديوان امرئ القيس 32، وانظر الكتاب لسيبويه 504/3.

كونه اسماً، ولا يمكن إحلاله محل الفعل، وهذا ينسحب أيضاً على الحروف والأدوات ففي الإنكليزية نقول: I am taking- He takes، وعليه نجد أن التغيير في الوحدة يستتبع تغييراً في القاعدة النحوية والعكس كذلك.

ومما يؤكد تداخل الصرف والنحو ظاهرة الفعل المبني للمجهول، فهو تغيير شكلي يصيب المفردة (الجذر) إلا أنه يستتبع تحويل المفعول به الأصلي إلى ما يشبه الفاعل شكلياً ونقله من موقعه السابق إلى موقع جديد في ترتيب عناصر الجملة، ويسمى في المصطلح النحوي العربي نائباً عن الفاعل. ومثال آخر على تداخل النحو والصرف هو المبتدأ إذا جاء في العربية وصفاً دالاً على الحال والاستقبال، معتمداً على نفي أواستفهام نحو: أقائم الزيدان؟ وما شابه ذلك، قيل في إعراب كلمة (الزيدان): فاعل سد مسد الخبر، فالصيغة الاسمية (قائم) تطلّبت فاعلاً، على حين أن الجملة الاسمية لا تحتاج إلى فاعل وإنما إلى خبر يتمم المعنى. والمسند لا يكون في الجملة الاسمية إلا خبراً، على حين أن الفاعل في الجملة الفعلية لا يكون إلا مسنداً إليه. كقول الشاعر:

أقاطنٌ قومُ سلمى أم نووا ظعنا إن يظعنوا فعجيب أمر من قطنا

ثالثاً: المستوى النحـوي:

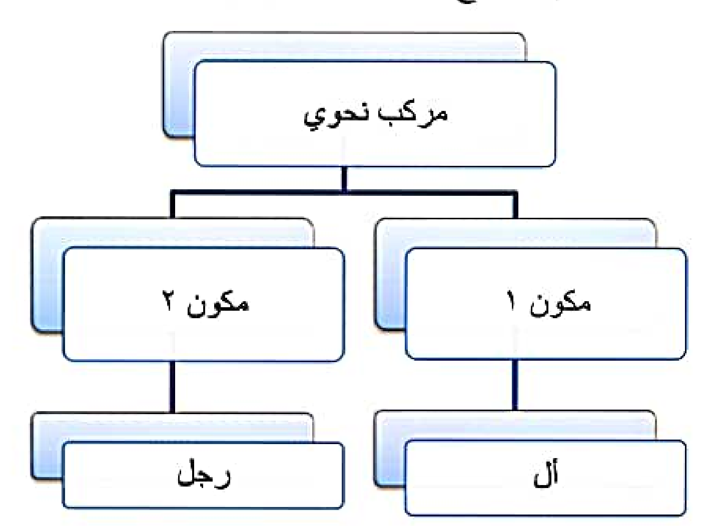
تعود جذور النظرية النحوية المعاصرة إلى فرانز بواز Boaz الذي قارن بين اللغات الهندو-أمريكية وبعض اللغات الأوربية، واستنتج أن لكل لغة سماتٍ تميزها من غيرها، لكنه لم ينف أن بعض اللغات تجتمع حول قواعد نحوية مشتركة، وكرر هذه الفكرة إدوارد سابير Sapir الذي دعا إلى دراسة اللغة دراسة ثنائية الطابع، فالنحو يدرس دراسة شكلية خلافاً للنظام الدلالي- ارتباط اللغة بالمعاني- الذي يعتمد على معرفة السياق، والبيئة الاجتماعية، والموروث الثقافي والديني.

نظرية التحليل البنيوي:

أما بلومفيلد الذي صنف في العام 1932 كتاباً بعنوان "اللغة" فقد تناول قضايا متعدِّدة تتصل بها، أبرزها: تأكيده أن الفكرة السائدة عن النحو من حيث إنه دراسة تهتم بالنسق التتابعي للجملة، ووضع الكلمة إلى جانب الأخرى في نظام خطي، فكرة تعوزها الدقة. واقترح بدلاً من ذلك ما يعرف بنظرية تحليل الجملة إلى مكوناتها المباشرة، وهي نظرية تختصر في كتب النحو بالحرفين "IC".

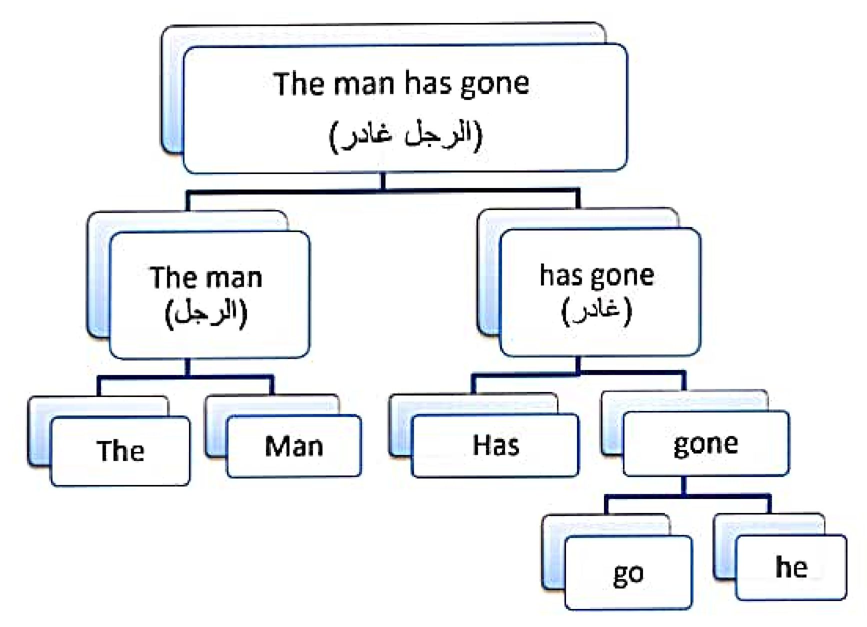
وقد فرّق بين المكوِّن النحوي والمركَّب النحوي. فالمكون النحوي هو أصغر وحدة لغوية يمكن أن تدمج فيما هو أكبر منها ليكونا مركباً، وفي الوقت نفسه لا يمكن تجزئتها إلى ما هو أصغر منها، مع الاحتفاظ بقيمتها اللغوية ووظيفتها النحوية.

فكلمة (الرجل) تتألف من مكوّنين هما (أل) و(رجل) فـ"ال" لا يمكن تجزئتها إلى ما هو أدنى منها مع الاحتفاظ بوظيفة لها نحوية أو دلالية أو صرفية، وكذلك "رجل" لا يمكن تقسيمها إلى أجزاء أقل منها مع الاحتفاظ لها بدور في التركيب.



والتركيب النحوي عند بلومفيلد أقل من جملة، لكن يمكن للجملة أن تتألف من مركب نحوي واحد استناداً لتقدير ما هو مضمر ومقدر منها، فقولنا لأحد الأشخاص "اذهب" مركب مؤلف من الفعل المذكور والضمير الغائب أنت الذي يدل عليه السياق.

وأما الجملة the man has gone (الرجل غادر) فتتألف من مركبين نحويين، وكل منهما مؤلف بدوره من مكونين نحويين، والمكون الثاني من المركب الثاني يتألف هو الآخر من مكونين نحويين هما: go+ne. وفيما يأتي رسم مخطط يوضّح التحليل السابق:

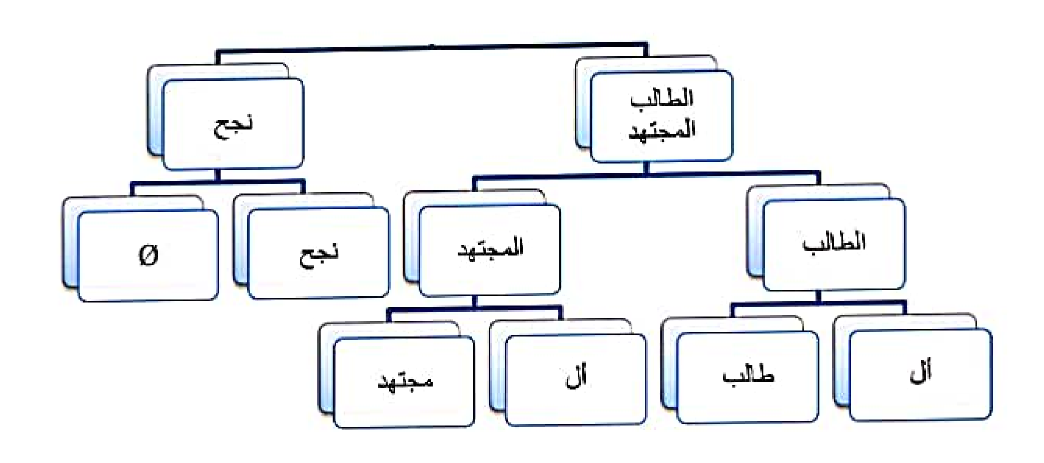


وقد رأى بلومفيلد أن المكون النحوي لا يعدو أن يكون واحداً ممّا يأتي:

مكون اسمي– مكون فعلي– مكون حرفي

ولا يمكن لأحد هذه المكونات أن يحلّ محل الآخر، والتركيب النحوي بسبب ذلك

نوعان: تركيب تغلب عليه الصفة الاسمية أو الفعلية ويسمّاه مركزياً لأن أحد عناصره يمكن أن يحلّ محل الآخر دون أن يختل التركيب الجملي مثال: الطالب المجتهد نجح.



فكلمة الطالب يمكن أن تحلّ محلّ"المجتهد"، فيقال: الطالب نجح، ونستطيع أن نضع كلمة "المجتهد" مكان كلمة "الطالب"، فنقول: المجتهد نجح. ولهذا يعدّ التركيب النحوي المكوّن من (الطالب المجتهد) مركباً مركزياً لكن التركيب (الطالب نجح، أو المجتهد نجح) لا يعدّ مركزياً لأن الفعل "نجح" لا يستطيع أن يحلّ محل أحد الاسمين الآخرين.

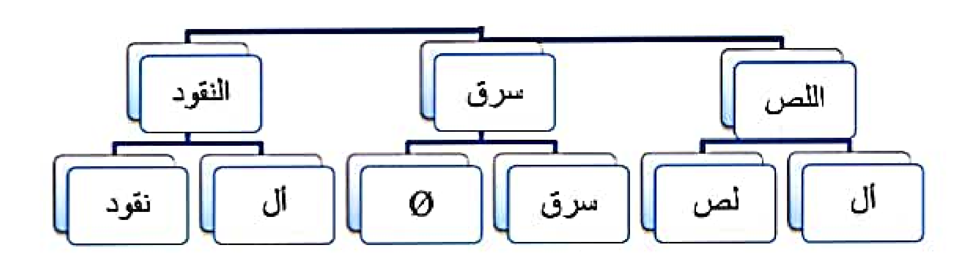
وقد دعا بلومفيلد إلى النظر للجملة من الأعلى إلى الأسفل بدلاً من النظرة الخطية من اليسار لليمين أو العكس. وابتدع فكرة الرسم المشجر للجمل. وهو رسم يبدأ بالجسم الأكبر ثم يتدرج إلى أسفل منتهياً بالمكونات النحوية الصغرى التي لا تقبل التقسيم أو التحليل.

وقد سئل بلومفيلد عن الحكمة من هذا التحليل النحوي فأجاب مؤكداً أن معرفة السامع أو المتكلم بتحليل الجملة إلى مكوناتها النحوية المباشرة، يساعد في إزالة ما يعرف

بالغموض النحوي، ولا سيما عن تلك المركبات المطولة التي تتخللها مركبات نعتية أو عطفية فيسهّل على السامع والمتكلم اختصار الجمل الطويلة إلى مركبات قصيرة، فمثلاً الجملة الآتية: مدرسة الجامعة الجديدة فتحت أبوابها. إذا حلّلناها جاعلين من (المدرسة) مركباً نحوياً ومن (الجامعة الجديدة) مركباً آخر، كان الوصف عائداً للجامعة، أما إذا جعلنا (مدرسة الجامعة) مركباً نحوياً واحداً، فإن الوصف يصبح تابعاً للمدرسة، فهي الجديدة وليست الجامعة.

وأما إذا نظرنا في جملة مثل الجملة الآتية: (الموظفون المخلصون في عملهم يكافؤون) استطعنا تحليلها إلى مركبين نحويين هما: الموظفون + يكافؤون، وما بينهما فضول لا أكثر ولا أقل.

وقد أخذ على هذه النظرة أنها لا تفرق في التحليل النحوي بين الجمل المبنية للمجهول مثلاً والمبنية للمعلوم، فتحليلهما في نهاية المطاف تحليل واحد، فجملة (اللص سرق النقود) تحليلها على النحو الآتي:



معرّف+ اسم+فعل+ معرف+ اسم والجملة المبنية للمجهول تحلل التحليل نفسه: النقود سرقت من اللص. تتألف هذه الجملة من: معرف+ اسم+ فعل+ مكون حرفي+ اسم. هذا مع أن الجملتين مختلفتان اختلافاً كبيراً، فاللّص في الأولى فاعل وفي الثانية مجرور

بحرف، والنقود في الأولى مفعول به للفعل سرق، وهي في الثانية مبتدأ خبره جملة (سرقت من اللص) وفي الأولى لم نكن في حاجة إلى حرف الجر، ولم نكن في حاجة إلى التاء التي لحقت بالفعل في الثانية. يضاف إلى ذلك أن ترتيب المكونات النحوية اختلف، فما كان في البداية تأخرت رتبته إلى نهاية الجملة (اللص) وما كان في نهاية الجملة تقدّم ليكون أولاً (النقود).

وكذلك أخذ على هذا النحو من التحليل النحوي البنيوي أنه لا يفرق بين جملة صحيحة من حيث النحو والمعنى، وأخرى غير صحيحة، لأن التحليل فيهما تحليل واحد، ولا يُظهر الاختلاف من حيث المعنى، فجملة (غادر المدرس إلى باريس)، وجملة (غادر الجبل إلى باريس)، تحليلهما البنيوي واحد مع أننا لا نقبل الثانية، ونعدّها جملة خاطئة.

ومما أخذ أيضاً على هذا النوع من التحليل إخفاقه في الإجابة عن السؤال الآتي: ما الذي يجعل المتكلم في لغة من اللغات يستطيع تأليف عدد لا متناه من الجمل وفقاً لقواعد محدودة العدد؟ أي إن هذا التحليل لا يوضح لنا الطبيعة الإبداعية للغة والنحو، وذلك شيء تصدى له النحاة بعد بلومفيلد وفي مقدمتهم تشومسكي.

هاريس النظرية التوزيعية Distribution Theory:

أفاد هاريس من النظرية التوزيعية إلا أنه لم يلتزم بها، وفي كتابه (تحليل الخطاب) أوضح أن في كل لغة مجموعةً محدودةً من الصيغ الصرفية، وأن مفردات اللغة إما أن تنتسب إلى هذه الصيغة، أو تلك. فثمة فعل واسم وحرف ووصف وظرف. ولا يمكن لأي من هذه الصيغ أن تحلّ مكان الأخرى، فنستطيع القول:

المدرس يلقي المحاضرة، ولا نستطيع القول: المدرس الكبير المحاضرة لأن كلمة الكبير لا تحلّ محلّ الفعل، ولكنا نستطيع القول:

المعلم يلقي المحاضرة

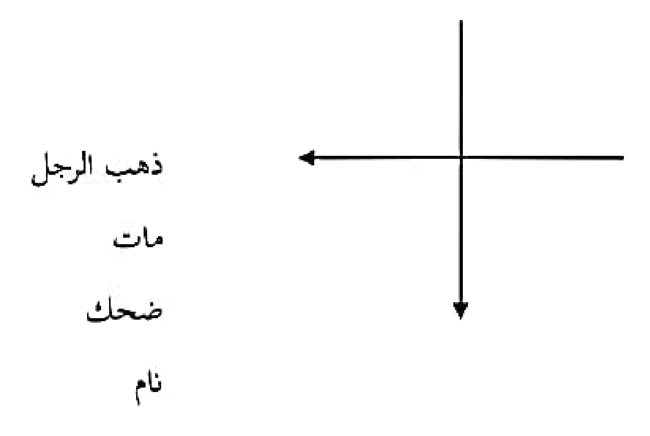
الأستاذ يلقي المحاضرة

التلميذ يلقي المحاضرة

وهذا يعني أن الكلمات التي احتلت الرتبة الثانية بعد المعرف تنتمي كلها إلى صنف صيغة واحدة ومن هذا نجد أن النحو هو الذي يتحكم بتركيب الجمل في أغلب اللغات تقريباً. وأن بالإمكان تحويل الجمل اللامتناهية العدد إلى أبنية ذهنية مجردة محدودة العدد جداً، والمتكلم الذي اختزن في عقله هذه البنى ما عليه إلا أن يملأ كل رمز (خانة) بصنف الصيغة التي تناسبه. وينبه هاريس في حديثه عن ركني الجملة: الخطي والرأسي، إلى ضرورة أن يراعي المتكلم ما يتطلبه أي تعديل في استخدام الصيغ. مثل:

- محمد يقرأ دروسه.
- أنا أقرأ دروسي.
- هم يقرؤون دروسهم.

نلاحظ في الأمثلة السابقة اختلاف الضمائر تبعاً لاختلاف (المبتدأ)، أي إن أي تغيير في عناصر الركن الرأسي (الاستبدال) يستتبع تغييراً في العناصر المؤلفة للركن الخطي (المجاورة).



شاهد الرجل الولد

زيد

المعلم

المهندس

كل العناصر التي تتألف منها جملة (شاهد الرجل الولد) منظومة وفقاً للتوزيع الذي أشرنا إليه (فعل+ معرف: أل+ اسم: رجل+ معرف: أل+ اسم: ولد) وانتظام هذه السلسلة هو ما عناه بالركن الخطي أو محور المجاورة، ولكن إذا نظرنا وفقاً لاتجاه السهم إلى أسفل لاحظنا أن بالإمكان وضع: زيد، أل+ معلم، وأل+ مهندس، مكان الرجل. ولحسن الحظ أن هذا الاستبدال لم يتطلب أي تغيير في العناصر المنظومة في الخط الركني (المجاورة). ولكن لننظر في هذا المثال:

- الطفل يشرب الحليب
- هي تشرب
- هما يشربان

- هم يشربون
- هنّ يشربن

ففي الأمثلة السابقة يتضح أن اللجوء إلى ضمير المؤنثة في الثانية تطلب تأنيث الفعل بإضافة تاء في أوله، ولو شاء المتكلم أن يقول (هي يشرب) لبادرنا على الفور لتخطئته.

وبناء على ما سبق لا بد من الاعتراف بصحة ما ذهب إليه هاريس من تلازم المحورين: المجاورة والاستبدال.

وجدير بالذكر أن هاريس وغيره من التوزيعيين ابتكروا ثلاث طرائق لتمثيل التحليل التوزيعي تمثيلاً دقيقاً، وهي:

• **التقويس:** يعدّ التقويس من الطرائق الطامحة إلى تمثل بنية مكونات الجملة، ويرجع الفضل في تطوير هذه الطريقة إلى رولان ولس Wells وهي تنهض أساساً على وضع أقواس متداخلة فيما بينها بشكل يشتمل على المقاطع التابعة أو الداخلة في تكوين تركيب واحد، وسنذكر مثالاً يبين هذه الطريقة.[1]

الولد يشاهد التلفاز

(1 (2 (3ال)4 (5ولد)6)7 (8 (9يشاهد)10 (11 (12ال) 13 (14تلفاز) 15)16)17) 18

ونبين وفقاً للأرقام المتسلسلة ما تشير إليه الأقواس:

---

(1) انظر مدخل إلى الألسنية، يوسف غازي، 223.

1-18 = الجملة (P)

2-7 = الولد: ركن اسمي (S.N)

3-4 = أل: أداة تعريف (A.D)

5-6 = ولد: عنصر اسمي (N)

8-17 = يشاهد التلفاز: ركن فعلي (S.V)

9-10 = يشاهد: عنصر فعلي (V)

11-16 = التلفاز: عنصر اسمي (N)

12-13 = أل: أداة تعريف (A.D)

14-15 = عنصر اسمي (N)

• **علبة هوكيت:** ولعل من جملة الطرائق التي اقترحت في عملية التمثيل البياني ما يُعرف "بعلبة هوكيت" Hockett نسبة إلى صاحبها نفسه. وهذه العلبة ذات مربعات مرقمة ترمز إلى مكونات الجملة المحللة وفقاً لتقسيم تنازلي أو تصاعدي.[1]

وقد حلل ميشال زكريا في كتابه "الألسنية" المثال الآتي: كتب الولد الرسالة إلى الأستاذ الشهر الماضي، بحسب علبة هوكيت جاعلاً معادلة الجملة على النحو الآتي:

---

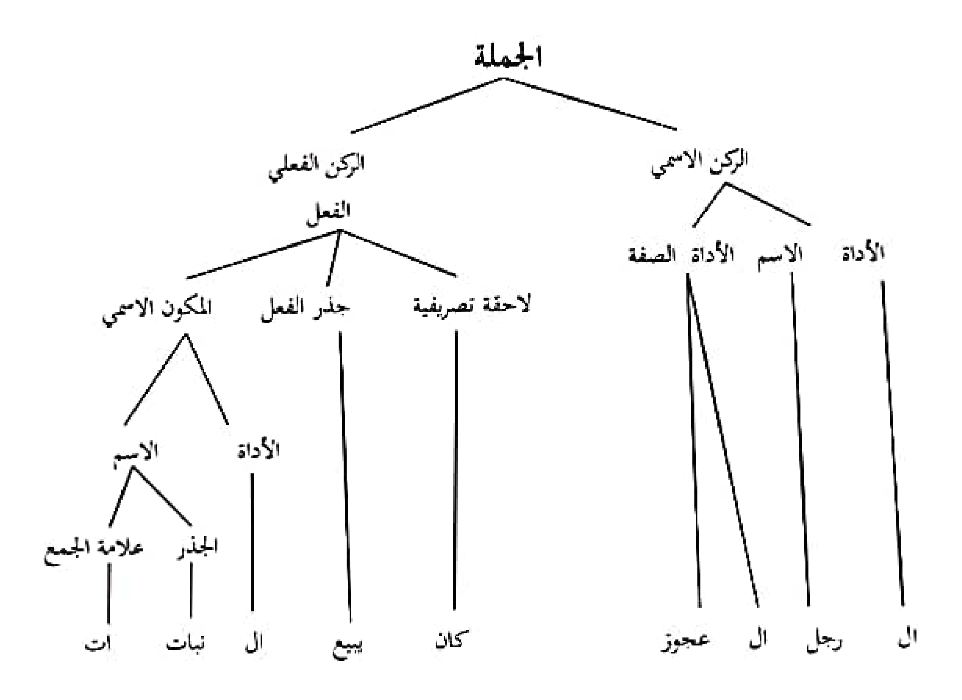
(1) انظر مدخل إلى الألسنية، يوسف غازي، 225.

كتب	ال	ولد	ال	رسالة	إلى	ال	أستاذ	في	ال	شهر	ال	ماضي
فعل	تعريف	اسم	تعريف	اسم	حرف جر	تعريف	اسم	حرف جر	تعريف	اسم	تعريف	نعت
فعل	تعريف	اسم	تعريف	اسم	حرف	ركن اسمي		حرف	تعريف	اسم	تعريف	نعت
فعل	ركن اسمي		ركن اسمي		شبه جملة			حرف جر	ركن اسمي		ركن نعتي	
ركن فعلي								شبه جملة				
الجملة												

●التمثيل بالشجر: وهذه الطريقة هي أكثر الطرق شيوعاً وقبولاً لدى الدارسين المحدثين ولا سيما أصحاب المدرسة التوليدية والتحويلية، ويشير جذر الشجرة في الأعلى على المكون الرئيسي الأعلى، أي الجملة. وتشير كل عقدة إلى مركب واحد قابل للتجزئة. على حين أن العقد النهائية تشير إلى الوحدات النحوية الصغرى.[1]

مثال الجملة الآتية: الرجل العجوز كان يبيع النباتات.

(1) انظر مدخل إلى الألسنية، يوسف غازي، 226.



وختاماً نستطيع القول إن التحليل الذي قامت عليه نظرية بلومفيلد ومن سار على دربه نجد له نظيراً في النحو العربي، ألا وهو إعراب النحويين للكلمات والجمل. وإنما كان الإعراب أوفى منه؛ لأنه لا يكتفي بتقسيم الجملة إلى مكوناتها الدنيا بل يزيد على ذلك ببيان نوع الكلمة، اسماً كانت أو فعلاً، وإذا كانت فعلاً فهل هي ماضٍ أم مضارع أم أمر. ثم يذكر العلاقة بين الكلمات. ويذكر العامل ومعموله. والحركة الدالة على موقع الكلمة في الجملة، إلى آخر ما هو معروف في إعراب الكلمات والجمل.[1]

ويمكن تلخيص المبادئ الأساسية التي تقوم عليها بنيوية بلومفيلد وتلامذته، في الآتي:

(1) اللسانيات، المجال والوظيفة والمنهج، 170.

1- تعتمد البنيوية بشكل أساسي على دراسة النصوص اللغوية، بغض النظر عن القدرات الذهنية لدى الناطقين باللغة، (أية لغة).

2- اتفق البنيويون على تصنيف عناصر اللغة ومكوناتها، ابتداء من الصوت وانتهاء بالتركيب وجعلوا هذا التصنيف عملاً مادياً خالصاً، دون النظر إلى الآلية الذهنية التي تحكم هذه العناصر.

3- يرى البنيويون أن لكل لغة أبنيتها التي تنفرد بها، وأن الجامع بين اللغات الإنسانية كافة أمر غير وارد، أي إن دراسة اللغة على أنها ظاهرة إنسانية ليس من الدرس اللغوي في شيء. وفرضوا على الظاهرة اللغوية تصورهم السلوكي الآلي، فضيعوا فرصاً ذهبية في استجلاء حقيقة العالمية اللغوية، وضيقوا النظر في اللغة لتكون مجرد استجابة لمثير.

4- اعتمد البنيويون في البداية، على الطريقة الجزئية في تدريس اللغة، وهي الطريقة التي تنطلق من الصوت والحرف، إلى الكلمة، ثم إلى الجملة.(1)

نظرية القواعد التوليدية التحويلية:

لقد أفاد نعوم تشومسكي Chomsky من النحاة واللغويين، ولا سيما من بلومفيلد ونظريته القائمة على تحليل الجملة لمكوناتها النحوية المباشرة. وأفاد من نظرية المورفيم وكذلك من محوري الاستبدال والمجاورة عند هاريس.

وحاول أيضاً الوصول إلى قواعد شاملة تنتظم تركيب الجملة في جميع اللغات على أساس أن هناك عوامل مشتركة بين البشر.

وربط تشومسكي بين اكتساب اللغة وطبيعة القواعد النحوية، مميزاً بين السليقة

---

(1) انظر اللسانيات، المجال والوظيفة والمنهج، 172.

التي يستوي فيها العام والخاص، والأداء الذي يتباين فيه المتكلمون ويختلفون درجات، وفرّق بين الكفاية Competence والأداء Performance. وقد جعل التوليد ناتجاً عن الكفاية على حين أن التحويل ناتج عن الأداء مؤكداً ارتباط البنية العميقة للجملة بالسليقة، على حين أن البنية السطحية لها مرتبطة بالأداء (الكفاية: شيء يكتسبه الفرد ليسمح له بالتوليد، فهي المعرفة الضمنية بقواعد اللغة، وهي قائمة في ذهن كل من يتكلم اللغة، والأداء: القدرة الفردية على أن ينتج هذه الجملة ويحولها، فالأداء الكلامي يخضع لعوامل نفسانية متعددة، والكفاية المشتركة تنتج أداءات مختلفة) فيتوجب على اللساني إيلاء اهتمامه أولاً إلى قواعد الكفاية اللغوية.

وقد مرت هذه المدرسة بثلاث مراحل رئيسية سنعرض إليها باختصار:

1- تحدث تشومسكي في البداية عما يعرف بنموذج القاعدة المحدودة. فبناء جملة في رأيه يقوم على مبدأ الاستدعاء النفسي. فإذا تخيّر المتكلم البدء بأداة التعريف تطلّب منه ذلك أن يذكر بعده اسماً من الأسماء التي تقع بعد أداة التعريف ثم يحتاج هذا المركب (أل التعريف= الاسم) إلى ما يتمم الجملة بإضافة فائدة ترتبط به، ويستدعيها على وفق الرابطة النفسية بين الألفاظ، فيقول (فعلاً) ما وهذا الفعل يتطلب شيئاً يقع عليه، فتصبح الجملة مثلاً: الرجل يرعى الأطفال.

فكل عنصر من عناصر الجملة استدعى في رأي تشومسكي الذي يليه، إلى أن تصل الجملة حداً لا تتطلب فيه ما يضاف إليها، فيستأنف المتكلم بناء جملة أخرى وهكذا.

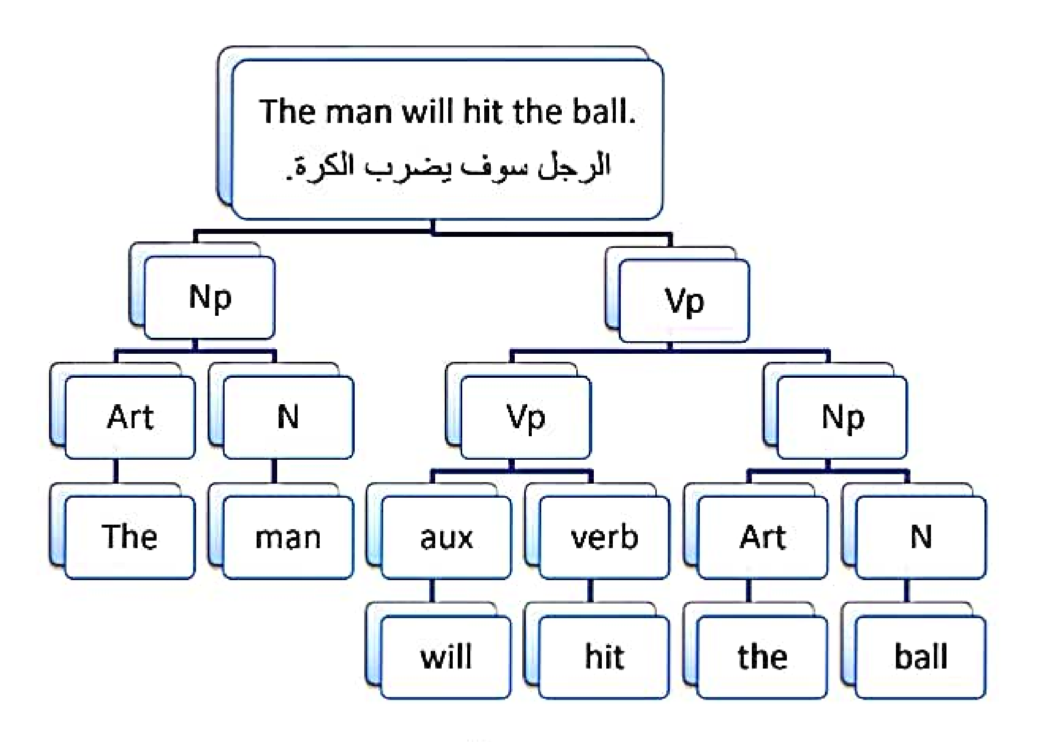
ويعتقد تشومسكي أنه بهذا النموذج يلقي الضوء على طريقة المتكلم في إنتاج أو توليد الجملة. أي إنه يتناول النحو تناولاً هدفه إلقاء الضوء على العمليات الذهنية والعقلية والسيكولوجية التي تتحكم بعملية الكلام والاستماع والفهم والاستيعاب.

وقد ظن تشومسكي بهذه الفكرة أنه أجاب على السؤال الذي أرّق الباحثين وهو ما الذي يمنح المتكلم القدرة على إنتاج جمل جديدة على غير نمط سابق؟ وما الذي يمكّن مكتسب اللغة من تأليف جمل بلغته دونما صعوبة، ويمكّن السامع من أن يفهم تلك الجمل على الرغم من أنه لم يسمع بها قبلاً.

إلا أن هذا النموذج كان نصيبه من خصوم تشومسكي النقد القاسي، فقد قيل: إن هذا النموذج لا ينطبق إلا على جمل بسيطة التركيب، وفي اللغة جمل أكثر تعقيداً لا ترتبط العناصر المكونة لها برابطة التداعي النفسي أو الذهني. وقد أقرّ تشومسكي بعد شيوع هذا النقد بصحته، مؤكداً أن نموذج القاعدة المحدودة نموذج غير كافٍ.

2- قواعد تركيب أركان الجملة: إن هذا النموذج يسعى إلى الوقوف على المكونات المجردة التي تتفق فيها اللغات المختلفة. فنشر في العام 1965 كتاباً جديداً أدخل فيه تعديلات جذرية على هذا النموذج، مطلقاً على النموذج الجديد اسم "قواعد بناء العبارة"، وهو قائم أساساً على نتائج تحليل بلومفيلد والتوزيعيين عامة.

يفترض تشومسكي وفقاً لهذا النموذج وجود ثماني قواعد، أربع منها نحوية وأربع أخرى معجمية، وهذه القواعد الثماني تعمل سوية على إنتاج الجملة، فالمتكلم باختياره المكون الحرفي، أو الاسمي، أو الفعلي، ليبدأ به الكلام يستخرج في الوقت نفسه تصنيف هذه العناصر من المعجم، فهو الذي يعرفنا إن كان ما نستعمله فعلاً أو اسماً أو أداة تعريف أو تنكير أو حرف جر وهكذا. فلننظر الآن في الجملة الآتية وما فيها من التحليل الذي يوضحه الرسم المشجر لنحدد هذه القواعد الثماني:



والنظر في هذا الرسم المشجر يوضح لنا أن هذه الجملة اجتمعت فيها القواعد الثماني على النسق الآتي مع ملاحظة أن القواعد من 5-8 قواعد معجمية في رأيه:

1- مركب اسمي Np+ مركب فعلي Nv

2- مركب اسمي Np+ فعل v+ مركب اسمي Np

3- حرف art+ اسم N+ فعل V+ مركب اسمي Np

4- حرف art+ اسم N+ فعل V+ اسم Np

5- أل The+ اسم N+ فعل V+ أل The+ كرة ball

6- أل The+ رجل man+ فعل v+ أل The+ كرة ball

7- أل The+ رجل man+ سوف will+ فعل v+ أل The+ كرة ball

8- أل The+ رجل man+ سوف will+ يضرب hit+ أل The+ كرة ball

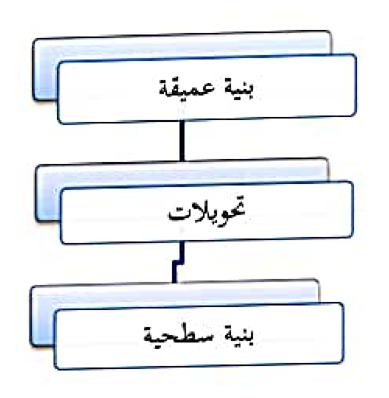
والنظر السريع في هذا النموذج يوضح لنا ما يأتي:

– تأثر تشومسكي بمن سبقوه ولا سيما بلومفيلد وهاريس.

– يرى أكثر اللسانيين في نموذج بناء العبارة نموذجاً وصفياً جيداً يمكن تطبيقه على أكثر اللغات وليس على الإنجليزية فقط، ولكن مما يؤخذ عليه مآخذ عدّة منها: أنّ المرء لا يستطيع التفريق بين جملة صحيحة نحوياً وأخرى غير صحيحة: الكرة سوف تضرب الرجل. فكلتاهما لهما التحليل ذاته إلا أن إحداهما صحيحة والأخرى خاطئة.

هذا النقد دفع تشومسكي إلى إعادة النظر في قواعد بناء العبارة ليقدم لنا نسخة أخرى أكثر قبولاً، وهي التي أضاف إليها ما يعرف بالقواعد التحويلية Transformational rules.

– القواعد التحويلية: تتلخص فكرة تشومسكي عن القواعد التحويلية في أن الجملة التي يتلفظ بها المتكلم تمر عند النطق بها في مرحلتين متتابعتين؛ الأولى منهما يتم فيها استخدام القواعد الأساسية التي ترتبط بكفاية المتكلم ومعرفته المختزنة باللغة، والثانية من المرحلتين هي التي يتم فيها اللجوء إلى القواعد التحويلية وهي قواعد مرتبطة بالأداء، فهي تعمل على تحويل التركيب الأساسي الذي هو نتاج القواعد الأساسية التوليدية إلى جملة ذات طابع نحوي ونطقي ومعنوي نهائي، وقد سمى البنية الأولى للجملة بنية عميقة Deep structure والثانية سماها بنية سطحية من السطح surface structure وفيما يأتي توضيح لذلك بالرسم المشجر:



وأما القواعد التحويلية فهي عنده نوعان:

- اختيارية: وهي التي تصح الجملة نحوياً ودلالياً بها وبغيرها كقاعدة البناء للمجهول، أو تقديم المفعول به على الفاعل في العربية.
- إجبارية: وهي القواعد التي لا تصح الجملة إلا بها نحو قاعدة المطابقة في الجنس، أو العدد، أو زمن الفعل وهكذا.

ولتوضيح هذه الفكرة علينا أن نتناول جملة مبنية للمجهول، مشيرين إلى القواعد التحويلية التي تم استعمالها. ففي الجملة الآتية:

[1]The poem will be written by the poet.

(الشعر سوف يُكتب من قبل الشاعر).

فالجملة الأساسية التي نتجت عنها هذه الجملة هي:

The poet will write the poem.

(الشاعر سوف يكتب الشعر).

---

(1) الشعر سيكتب من قبل الشاعر.

فاختيار المتكلم أو الكاتب لفعل مبني للمجهول وهو written: قاعدة تحويلية اختيارية مثلما نلاحظ. لكنه بعد أن عمد إلى وضع الجملة في هذا البناء أو النسق اضطر لتقديم المفعول به وهو poem مع المعرّف وتأخير الفاعل الحقيقي وهو poet وزيادة الفعل المساعد be وزيادة مورفيم الجر by. فهذه أربع قواعد تحويلية إجبارية ترتبت على اختيار المتكلم للفعل المبني للمجهول. وفيما يأتي ثبت بهذه القواعد التي تضمنتها الجملة:

1- تقديم المفعول به وتغيير حكمه الإعرابي.

2- تأخير الفاعل وتغيير حالته الإعرابية.

3- زيادة الفعل المساعد.

4- زيادة حرف الجر.

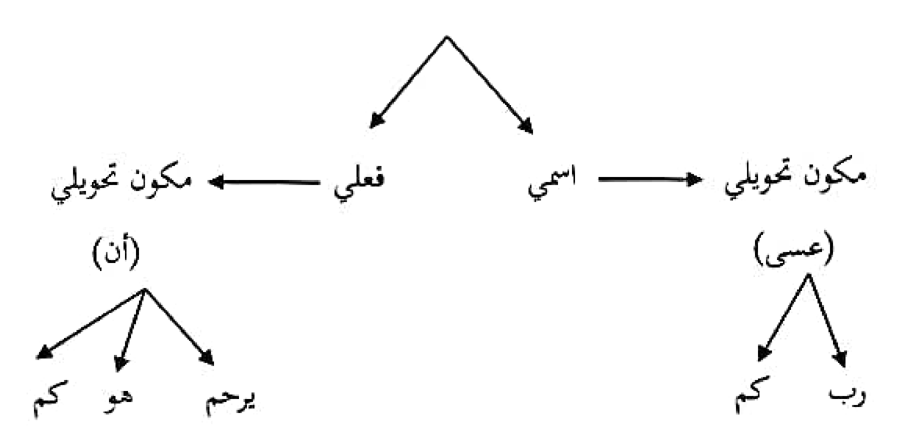
وقد تسبب عدم اهتمام تشومسكي في أول الأمر بالمعنى بمزيد من النقد الذي جوبهت به نماذجه في النحو. وذلك لأن قسماً غير قليل من اللسانيين رأوا أن أي نموذج نحوي ينبغي ألاّ يقتصر على تناول الجمل الصحيحة نحوياً، وإنما ينبغي له أن يهتم بصحة هذه الجملة على الصعيد النحوي والدلالي. فالمستوى الأول وهو البنية النحوية (العميقة، التوليدية) ينظر إليه باعتباره تجسيداً للطريقة التي تنطق بها أو ترتب. والثاني (البنية السطحية، التحويلية) ينظر إليه على أنه تمثيل لمعناها. وقد أفاد تشومسكي في ذلك النظر من بحوث كاتز Katz وفودر Fodr وبوستال Postal الذي وضع مع كاتز شعارهما الذائع: وصف لغوي- نحو= دلالة.

وأسفر هذا البحث عن وضع قواعد جديدة هي التي تعرف بقواعد الإسقاط وهي تقوم في الواقع على أساس الربط بين صحة الجملة نحوياً وموافقتها لسلامة المعنى.

وفي هذا السياق عاد تشومسكي إلى موضوع المكون، فأشار إلى مكون نحوي، ومكون دلالي، وآخر تحويلي.

فالبنية العميقة هي من نتاج العناصر الأولية المغذية لكل من المكون النحوي والمكون الدلالي، على حين أن البنية السطحية نتاج المكون التحويلي (استعمال قواعد تحويلية).[1]

ولتوضيح ما سبق نأخذ المثال الآتي من الآية الكريمة: [عَسَى رَبُّكُمْ أن يَرْحَمَكُم][2]، فهذه الجملة تتألف من مكونات نحوية هي (رب) و(يرحم) و(الضمائر كم، هو، كم) وهو مكون نحوي أيضاً. يضاف إلى ذلك مكونان تحويليان وهما (عسى وأن) وهي مورفيم يقترن استعماله بالفعل المضارع، والرسم المشجر يوضح ذلك:



هذه الجملة في رأي تشومسكي يمرّ بناؤها في المراحل الآتية:

- توفر المادة الأولية وهي طلب الرحمة من الناس والدعاء. وبعد ذلك تأخذ الكلمتان الأساسيتان موقعهما في البنية وهما: (رب) و(رحم) وهذه المرحلة تؤدي إلى بروز الجملة النواة أو الأساسية: الرب يرحم.

---

(1) في اللسانيات ونحو النص، إبراهيم خليل، 95-96-97.

(2)الإسراء 8/17.

– ثم أضيفت إليها المكونات التحويلية وهي (عسى) الذي هو كالفعل، لكنه لا يحمل معناه، وإنما يشبه الأفعال المساعدة، وهو يعبّر عن الترجي. ولما كان هذا المكون التحويلي لا يدخل الجملة التي أنجز الفعل فيها بل الجملة التي يتوقع فيها حدوث الفعل مستقبلاً، لذا تذكر (أن) لتناسب التوقع والاستقبال.

– وقد أضيف إلى "ربّ" الضمير، وهو مكون صرفي هنا لأنه ضمير حل محل الاسم، وشغل موقعاً إعرابياً مهماً وهو المضاف إليه. وهو على أي حال فضلة تصحّ الجملة بها وبغيرها.

– ولا ريب في أن من التحويلات الطارئة على الجملة هنا تقدير الفاعل الذي هو الضمير العائد على الاسم الذي بدأت به الجملة النواة.

– ونلاحظ ما تم وضعه هنا من لواصق صرفية هي من القواعد التحويلية الإجبارية، فمثلاً: "أن" و"ي" المضارع في يرحم، وعلامة الرفع في ربكم، وهذا كله نستطيع أن نعدّه من التمثيلات الصرفية والفونولوجية التي تظهر في الطور النهائي من أطوار تكون الجملة.

على أننا إذا نظرنا فيما سبق في ضوء ما ذكر عن آراء تشومسكي في الجملة لاحظنا البنية السطحية لها وقد صيغت صياغة جديدة بعد أن اعترتها المكونات التحويلية، وصاحب ذلك ما يمكن عدّه رقابة لغوية من المعجم والقواعد الصرفية والفونولوجية. بدليل أن أداة التعريف– مثلاً– لم تقترن هنا بالاسم لكونه متصلاً بالضمير الذي احتل موقع المضاف إليه، والإضافة تغني عن تعاقب (أل)، والفعل المضارع اقترن بالفتحة عوضاً عن الضمة لأن السابقة الصرفية تجعل المضارع منصوباً لا مرفوعاً، وهذا فضلاً عن أنه حالة إعرابية ضربٌ من التمثيل الفونولوجي.

النحو العربي من منظور اللسانيات:

يهتم النحو ببيان طريقة التركيب في اللغة... كيف يفعل ذلك؟.. يقوم النحوي باستقراء لغوي للغة المدروسة وبعد الوصف يقوم بالملاحظة ويتحرى الدقة ثم يصنف معلوماته وفق معايير التشابه والاختلاف وهذا هو لب المنهج الوصفي.

إلّا أنّ الاستقراء اللغوي لا يمكن في أي لغة من اللغات أن يكون استقراء كاملاً، ذلك أن الاستقراء الكامل يعني الاستماع إلى كل ما يقال وما قيل في هذه اللغة وهذا لا شك أمر محال لكن من حسن حظ النحو أن الاستقراء الناقص يكفيه. وأما من الجانب المعجمي فنحتاج إلى استقراء أوسع ومن هنا كثرت في الدرس اللغوي العربي القديم الاستدراكات في جانب الدلالة، ولأن الاستقراء الكامل متعذر، قال الشافعي: (إن لغة العرب أوسع من أن يحيط بها نبي).

ومن أهم أسس المنهج الوصفي: التصنيف، ومما لا شك فيه أن أي تصنيف لا بد أن يعتمد على معايير وضوابط يقوم التصنيف على أساسها. وهنا تمنع اللسانيات النحوي من أن يقوم بواحد من الأمرين الآتيين:

– أن يقارن بين المنطق العقلي المجرد ومنطق اللغة، وأن يحاول قسر اللغة على المنطق العقلي، لأن للغة منطقها الخاص.

– أن ينطلق النحوي من أفكار دينية، أو من موقف عاطفي تجاه اللغة التي يدرسها، إن سلباً وإن إيجاباً، ثم يحاول تبيين هذه الأفكار في اللغة.

خلاصة القول: المنهج الوصفي منهج يقوم على التصنيف أي على القياس والتعليل، ولكنه قياس محكوم بحدود اللغة وتعليل مرهون بطبيعتها.

فأين النحو العربي من المنهج الوصفي:

واجه اللحن علماء العربية بمشكلة لا بدَّ من حلها ففطن العلماء إلى أهمية ضبط اللغة العربية بغية صون الألسنة عن اللحن من جهة، وبغية التوصل إلى معرفة المراد من القرآن الكريم، إذ هو دستورهم الذي يبين لهم الحلال والحرام.

فماذا فعل علماء اللغة؟ رحل علماء اللغة إلى شبه الجزيرة العربية حيث لا احتكاك لغوي بغير العرب، وجمعوا ما جمعوه، فأصبح المجموع بالإضافة إلى القرآن الكريم مادة لغوية يستنبطون منها قواعد اللغة.

إذن في مجال الاستقراء بذل العلماء وسعهم في الجمع وكان عملهم منضبطاً بتحديدهم القبائل التي يؤخذ عنها.

أما بعد ذلك فقد استنبطوا ما استقرؤوه من قواعد اللغة، وصنفوا هذه القواعد في أبواب نحوية وقد لفت نظرهم ظاهرة في العربية، هي أن الكلام تختلف أواخره باختلاف الموقع، وأن بعض الكلام يؤثر في بعض، وهذا حق تبيحه اللغة، ولا يمكن لدارس العربية أن يتجاهل ذلك:

مثال: قالوا إن الحرف المختص يعمل، والذي لا يختص لا يعمل، واللغة تؤكد ذلك:

مثال: إنَّ الطقسَ جميل

إنما الطقسُ جميل

دخول "ما" على "إنّ" أفقدها اختصاصها، وصارت تدخل على الجملتين الفعلية والاسمية ولذلك فقدت عملها.

ولكن بعد تقدم الدرس اللغوي في أثناء ازدهار الحضارة الإسلامية تصدر الثقافة العربية علمان كبيران هما: علم الكلام، وعلم الفقه، أضف إلى ذلك علم المنطق الذي رفد الثقافة العربية.

ومن طبيعة الأمور تداخل المعارف والعلوم التي تشترك في الزمان، ويؤثر بعضها في بعض. وهذا ما حدث للنحو العربي، فقد بالغ النحويون في تصوراتهم وفي عللهم وفي قياسهم، وقد دفعتهم الأفكار المسبّقة إلى تجاوز منطق الاستقراء اللغوي.

مثال: ذهب بعض النحويين إلى أنّ "مِن" الجارة تستعمل لابتداء الغاية في المكان وفي الزمان، أما في الزمان فحجته في ذلك قوله تعالى: [لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فيهِ فيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أن يَتَطَهَّرُوا واللهُ يُحِبُّ المطَّهِّرِينَ][1].

وقول الشاعر:

لمن الديار بقنة الحجر   أقوين من حجج ومن دهر[2]

غير أن هذين الشاهدين لم يمنعا بعض النحويين من الانطلاق من تصور سابق مفاده: أن واضع اللغة حكيم والحكمة تقتضي أنه وضع "مذ" لابتداء الغاية في الزمان فقط ولذلك يجب أن تكون "من" دالة على ابتداء الغاية في المكان فقط.

إنه تصور عقلي يخالف ما أدى إليه الاستقراء، وقد دفعه هذا التصور إلى أن يرتكب خطأين لا يجوز أن يقع فيهما النحوي:

- تقدير ما لا حاجة إلى تقديره من حذف مع ما فيه من فساد المعنى، إذ قدر الآية بقوله: من تأسيس أول يوم.

- ثانيهما: المكابرة على عملية الاستقراء واتهامها بالخطأ فيزعم أن رواية البيت هي "مذ حجج ومذ دهر".

وهذا مخالف لمبدأ الرواية لأن الشعر تختلف روايته ولا يمنع الاحتجاج

(1) التوبة 108/9.

(2) البيت لزهير بن أبي سلمى في شرح ديوانه 86، وخزانة الأدب 126/4.

برواية أخرى.

بين المنهج الوصفي والمنهج المعياري:

كثيراً ما يتهم الدارسون العرب النحو القديم بالمعيارية، ويقصدون بهذه الصفة أن النحوي يتخذ من اللغة القديمة معياراً يحكم من خلاله على الكلام الجديد، وهذا أمر رفضته اللسانيات الحديثة التي تجعل من واجب النحوي وصف الكلام الذي يحلله دون قياس إلى الكلام القديم، فماذا يمكن أن يقال في ذلك؟

إن اللغات الأوربية (الإنكليزية والفرنسية والألمانية) ما هي إلا خليط من اللغة اللاتينية الأم واللهجات المحلية أو لهجات القبائل الأخرى، فقد بدأت تنفصل شيئاً فشيئاً عن اللغة اللاتينية وتأخذ كل لغة من هذه اللغات شكلها الخاص بها وقواعدها النحوية، ومع ذلك فقد استمر علماء النحو وهم يدرسون هذه اللغات في النظر إلى اللغة اللاتينية على أنها اللغة الأم وبدؤوا في نحوهم يرسمون حدود التشابه والاختلاف بين اللغة اللاتينية (الأم) واللغة الجديدة (الإنكليزية، الفرنسية، الألمانية) وأخذوا يبيّنون التطورات الصوتية والنحوية والصرفية التي طرأت على اللاتينية حتى صارت إلى ما صارت عليه من لغات جديدة، وهم لا يفتؤون يجرون اللغة الجديدة إلى أصولها اللاتينية القديمة مهما بعد الشق بينهما.

ولو نظرنا إلى عملهم هذا لأمكننا القول بما يأتي:

• إن ما قاموا به وما تضمنه درسهم لا شك أن فيه عملاً مهماً فيما يخص قوانين التطور اللغوي، لكن النحو يرمي إلى وصف لغة من اللغات بغية معرفة قواعدها ليصار إلى تعلمها.

• ولقد جاءت اللسانيات الحديثة فوجدت الدرس النحوي على هذه الصورة التي ذكرناها، فأكدت اللسانيات ضرورة الفصل بين اللغة اللاتينية واللغات الحديثة المراد

درسها وضرورة صرف النظر عن العلاقة بينهما، وصرف النظر عن كيفية التطور من اللاتينية إلى هذه اللغة المدروسة.

● هذه الأمور التي أكّدت اللسانيات ضرورة صرف النظر عنها تشكل الركائز الأساسية للمنهج التاريخي (التطوري التعاقبي) الذي ينتمي إلى مجال فقه اللغة وإلى مجال التاريخ والفلسفة أكثر من انتمائه إلى النحو.

● إذاً لقد رفضت اللسانيات هذا المنهج التاريخي ووضعت مكانه أسس المنهج التزامني الآني الذي يصف النظام اللغوي للغة دون ربطه باللغات التي تشكلت منها هذه اللغة.

لكن لا يجوز البتة أن نزعم أن اللسانيات تمنع قياس كلام على كلام والذي يجعلنا نقطع هذا القطع هو فكرة أساسية في اللسانيات ونقصد بها تمييزه بين اللغة والكلام. فاللغة منظومة اجتماعية يتعارف المجتمع عليها ثم يقوم الفرد بإنشاء الكلام على هدي هذه اللغة.

لذلك فمفهوم المعيارية في اللسانيات يعني النهي عن اتخاذ كلام ينتمي إلى عصر أو مرحلة من مراحل تشكّل هذه اللغة أو تطورها.

وليس الأمر كذلك بالنسبة إلى العربية ذلك أن علماء اللغة عندما درسوا العربية إنما درسوا العربية الفصحى وعندما قاسوا كلاماً فصيحاً على كلام فصيح لم يخطئوا لأنهم يجعلون المقايسة بين كلامين ينتميان إلى منظومة لغوية واحدة وهذه المقايسة تنزع إلى كشف وجوه التشابه في الاستعمال الذي يؤدي إلى معرفة القواعد.

رابعاً: المستوى الدلالي Semantics:

إنّ دراسة الجانب الدلالي "المعنوي" لا تعدّ فرعاً من فروع الدراسات اللغوية فحسب، بل يعدها كثير من الباحثين قمّة الدراسات اللغويّة، ومجال هذا العلم دراسة المعنى اللغوي على صعيدي المفردات والتراكيب، ويرى الباحث اللغوي عبد السلام المسدّي أن مجال علم الدلالة أوسع من أيّ علم آخر يدرس المفردات أو المعجم أو المصطلح، فقد جعله قطب الدوران في كلّ بحث لغوي ممّا ينفصل عن نظرية الإدراك وفلسفة المعنى، بسبب تطور هذا العلم وتشعب مناهجه[1]، لأنّ أيّ دراسة للغة لا بدّ أن تسعى إلى الوقوف على المعنى الذي هو الغاية من إنتاج المتكلم سلسلته الكلامية، بدءاً من الأصوات وانتهاء بالمعجم، مروراً بالبناء الصرفي ومعطيات السياق والمقام.

إذن: الاهتمام بدلالات الألفاظ لم يقتصر على فرع واحد من فروع التراث، وهو الدرس اللغوي، بل يكاد يشمل العلوم كلها من فقه وأصول كلام، وبلاغة، ونقد، ونحو، وفلسفة، وعلم نفس، والمنطق. لكن علماء اللّغة يلحّون على جعل علم الدلالة خاصاً بدراسة معنى الكلمات أو بالمعنى اللغوي عامة دون التطرق لمسائل منطقية أو نفسيّة أو مسائل أخرى تتعلّق بعلم الأجناس أو السيمياء، وغير ذلك من العلوم التي تتناول أجزاء من دراسة المعنى. وقد أدرك علماؤنا العرب القدامى أهمية دراسة المعنى ودلالات الألفاظ، وقد تجلّى ذلك أولاً في الرسائل اللغوية التي تجمع الألفاظ وفق ترتيب فكري معنوي، يسرد الألفاظ تبعاً لانتمائها لموضوع واحد، مثل: كتاب "الإبل" لأبي عمرو الشيباني "206هـ" وكتاب "الشاء" للأصمعي "213هـ" وكتاب "الطير" لأبي نصر أحمد بن حاتم "231هـ". ثم تحوّلت هذه الرسائل إلى كتب جامعة عرفت بمعاجم المعاني أبرزها: "فقه اللّغة" للثعالبي "429هـ" و"المخصّص" لابن سيده "458هـ" وكذلك كانت معاجم

---

(1)انظر: قاموس اللسانيات: عبد السلام المسدّي 21، 22.

الألفاظ التي اهتمت بالاشتقاق والاستعمالات المجازية للألفاظ دليلاً على اهتمام العرب بعلم المعاني، مثل: معجم مقاييس اللّغة لابن فارس "ت395هـ" وأساس البلاغة للزمخشري "538هـ".

وكذلك الدراسات المتعدّدة الوجوه للظواهر اللغويّة من ترادف واشتراك وتضاد وتطوّر للدلالات، وما حرص عليه علماء الأصول من توضيح لمعاني الألفاظ خوفاً من الخطأ في فهم الكتاب والسنة، وما تبع ذلك من دراسات الأدوات النحوية ومعانيها، وغير ذلك من الدراسات، كل ذلك من المباحث التي عالجها علماء العرب القدامى في إطار التفكير الدلالي المبكّر عند العرب.

أمّا تاريخ علم الدلالة الحديث فيرجع الباحثون المعنيّون بتأريخ هذا الفرع من علوم اللّغة نشأته إلى أواخر القرن التاسع عشر حين كتب الباحث الفرنسي ميشيل بريال M.Breal عام 1883 مقالاً أطلق فيه مصطلح Semantique أو Semantics. ومن ثمّ نشر بريال في عام 1897 كتاباً عن علم الدلالة، فكان له الفضل في الاهتمام العلمي بالدلالة ضمن إطار اللسانيّات.

وبعد أن ترجم ما كتبه بريال من الفرنسية إلى الإنكليزية ظهرت بحوث وكتب في علم الدلالة أبرزها ما تعرّض له الناقدان الإنجليزيان أوجدن وريتشاردز (Ogden and Richards) في كتابهما: معنى المعنى (The Meaning of Meaning) الذي صدر عام 1923م.

وانتشرت الدراسات الدلالية انتشاراً واسعاً في العالم العربي، وشارك في هذه الدراسات باحثون بارزون كثر، منهم: نيروب (Nyrop) عام 1913 ودوسوسير (F.De Saussure) عام 1916 وأولمان (S.Ulmann) وبلومفيلد (Bloomfield) وغيرهم كثير.

ولم يقتصر البحث الدلالي على الدراسات اللغوية، بل امتدّت فروعه إلى ميادين العلوم المختلفة من علوم تجريبية، وسياسية وفلسفية. وتشعبّت دراساته وتداخلت، حتى بات من الصعب أحياناً أن يضع الباحث حدوداً فاصلة للدرس الدلالي في مجال معيّن عن غيره من المجالات المعرفية المتعدِّدة. لذلك نجد أن علماء اللسانيات كانوا يلحّون على تخليص علم الدلالة من المجالات الخارجة عن اللّغة، وجعله علماً خاصّاً بدراسة المعاني اللغوية دون التطرّق إلى العلوم المعرفيّة والمنطقية والنفسية وغيرها. ولذلك سعوا إلى تحديد محاور للدرس الدلالي الحديث، وأهم هذه المحاور:

1-محور الدلالة، ويتضمّن: دراسة المعنى، والحقول الدلالية، والسياق وأنواع المعنى وتحليله.

2-محول العلاقات الدلالية، ويتضمّن الترادف والاشتراك والأضداد والفروق اللغوية وتدرّج الدلالة ومساحتها، كما يتضمّن بنى الألفاظ والاقتراض اللفظي.

3-محور التغير الدلالي، ويتضمّن أسباب التغيّر الداخليّة والخارجية، وسبل التغيير وأشكاله ومجالاته، إضافة إلى بحث المجاز والاستعارة ممّا له اتّصال وثيق بالمعنى وتبدّلاته.(1)

وسنتناول هذه المحاور بشيء من الدراسة والتفصيل للتوضيح.

1- محور الدلالة:

أ-دراسة المعنى:

(1)انظر: مبادئ اللسانيات، د.أحمد قدّور 342-343.

إن علاقة اللفظ بالمعنى شغلت أذهان علماء اللّغة والفلاسفة والأديان منذ القدم، ووقف العلماء حائرين أمام هذا الرابط بين أصوات الكلمات ودلالاتها، ودخلت هذه المسألة ضمن مسائل الخلاف بين الفئات الدينية والفكرية عند العرب القدامى، ونستطيع تلخيص آراء العرب القدامى على اختلاف منازعهم بأربعة آراء وهي:

1-إن الله وضع في كلّ لفظ معناه، وعلّم آدم المباني والمعاني ليعلمها الناس، وعليه جمهور كبير من علماء المسلمين.

2-إن البشر أدخلوا المعاني في المباني على أساس التواطؤ والاصطلاح.

3-بعض الألفاظ من وضع الله والباقي من وضع الناس، أو أنّ الأصول توقيف والفروع اصطلاح.

4-إنّ البشر استوحوا معاني الكلمات من محاكاة أصوات الطبيعة وهذا ما أشار إليه ابن جني.(1)

وحيرة القدماء من العرب في ربط المعاني بالألفاظ قد خالطت عقول الغربيين في العصر الحديث وهم يحاولون توضيح الصلة بين المعنى والمبنى، ولذلك نجد عالم اللسانيات دوسوسير يصوغ نظرية حول ربط الدال بالمدلول، فيرى أن هذه العلاقة اعتباطيّة غير معلّلة، وكذلك فعل مثله العالم وايتني (Whitney) الذي أقرّ أن الصلة بين المباني والمعاني اعتباطية لا عقليّة.

وقد تناول دوسوسير طبيعة الدلالة تحت عنوان (العلامة اللغوية) وللعلامة اللغوية عنده واجهتان: الأولى: ذهنية مجرّدة تتألّف من تصوّر الذهن حينما تقرع الكلمة السمع.

---

(1)انظر: في علم اللّغة 209، وانظر للتوسع: الخصائص 46/1، المزهر 16/1، 17 وما بعدها.

الثانية: واجهة حسيّة، تتألف من شيء مقصود (المدلول) ورمز، أي: أصوات كلمة معينة (الدال).

إن التصوّر على درجة عالية من التجريد، وهو الانطباع العقلي الناشئ من نطقنا لمجموعة من الأصوات، أمّا الصورة السمعيّة فليست الكلمة المنطوقة فعلاً، بل هي الأثر النفسي المتشكّل نتيجة النطق الفيزيائي المتكرّر.

مثال: يتساءل دوسوسير كيف تدل كلمة مثل (شجرة) على معناها ويجيب بأن للكلمة واجهتين:

1-واجهة ذهنية: وهي التصوّر والصوت السمعي.

2-الواجهة الحسية: وهي صورة الشجرة الحقيقية المغروسة في الأرض وهي المدلول.

ويتمّ الاستدلال بأن يطابق الإنسان بين الواجهتين.

وبعد دراسة العلاقة بين الدال والمدلول يعود دوسوسير لوصف هذه العلاقة بالاعتباطية، فليست هناك علاقة منطقية بين الدال والمدلول كما يرى، وممّن تحدث عن العلاقة بين اللفظ والمعنى أو الدال والمدلول الباحث الإنجليزي أولمان (Ulmann) الذي يرى: أن العلاقة بين اللفظ والمعنى علاقة متبادلة، إذ ليس اللفظ وحده هو الذي يستدعي المدلول، بل إنّ المدلول أيضاً يمكن أن يستدعي اللفظ، فعندما أفكّر في "منضدة" مثلاً سوف أنطق الكلمة التي تدلّ عليها، كما أن سماعي لهذه الكلمة يجعلني أفكر في "المنضدة".

أمّاعالم اللغة بلومفيلد فقد رأى أن المعنى هو محصّلة الموقف الذي يحدث فيه الكلام المعيّن من خلال عنصرين أساسيين هما: المثير والاستجابة. فارتباط كلمة "شجرة"

بمعناها قد يكون ناجماً عن لجوء المرء إلى شجرة يستظلّ بظلّها أو يأكل من ثمرها، وبعد تكرار هذا السلوك يثبت معنى الشجرة في ذهنه، وهذا مذهب كثير من السلوكيين عامة Behaviourisme الذين يعدّون اللّغة مجموعة عادات صوتية يكيّفها حافز البيئة، فمتكلم اللّغة يسمع جملة معينة أو يشعر بشعور معيّن فتحصل عنده استجابة كلامية دون أن ترتبط هذه الاستجابة بأيّ شكل من أشكال التفكير.

وأفرد كثير من الباحثين في العصر الحديث دراسات حول العلاقة التي تربط بين الدال والمدلول، ولهم آراء متعددة ومتباينة أحياناً فيها، ولو قورنت كثير من هذه الآراء بكلام علمائنا الأقدمين لما وجدنا فيها من جديد فقد قال السيوطي: ((اختُلِف هل الألفاظ موضوعة بإزاء الصور الذهنية أي: الصور التي تصوّرها الواضع في ذهنه عند إرادة الوضع، أو بإزاء الماهيات الخارجية؟ فذهب الشيخ أبو إسحاق الشيرازي إلى الثاني، وهو المختار، وذهب الإمام فخر الدين وأتباعه إلى الأول))[1].

فالعَرب لم يختلفوا في نوع الاقتران بين اللفظ والمعنى أهو اعتباطي أم معقول، وإنما اختلفوا في نوع المثير الذي يستثير الدلالة في الذهن، أهو الصورة الذهنية المجرّدة، أم الصورة الحسيّة الواقعيّة؟ ثم فضّلوا أن يكون المثير الصورة الحسيّة، لأنها أعلق بالجوارح، وأرسخ في واقع الحياة.

إن العلاقة بين اللفظ والمعنى أو الدال والمدلول لا يمكن أن تكون اعتباطية بالمطلق، إن كان فيها شيء من الاعتباط فهذا يحدث في المرحلة البدائية في الربط بين الأصوات والمعاني، وبعد ذلك يتمّ الارتباط بشكلٍ واعٍ، ترفده المواضعة الاجتماعية، وترسخه الذاكرة العامة للمتكلمين باللّغة المشتركة.

---

(1)المزهر 42/1.

ب-السياق:

انطلق عدد من الباحثين المحدثين من أن تحديد المعنى اللغوي يقوم على معطيات السياق الذي ترد فيه الكلمات، وقد درس أصحاب نظرية السياق معنى الكلمة متجاوزين أصل الدلالة وطبيعة العلاقة بين الدال والمدلول. فاهتموا بالدور الذي تؤدّيه الكلمات في السياق والطريقة التي تستعمل بها، وعلى ذلك عرّفوا المعنى بأنّه حصيلة استعمال الكلمة في اللّغة من حيث وضعها في سياقات مختلفة.

فالكلمة المعزولة لا يعتدّ بقيمتها أو وظيفتها، ولأنّ اختبارها بوصفها وحدة مستقلّة بذاتها قصداً على معرفة معناها ضرب من العبث، فليس للكلمة ولا لمعناها وجود مستقلّ قائم بذاته، إن وجودها ومعناها شيئان نسبيان يلاحظ كل منهما، ويعرف بالإشارة إلى غيرها من الكلمات والمعاني أو عن طريق مقابلتها بها ومعنى الكلمة بهذه الطريقة ينحصر في وظيفتها التي لا تعرف إلاّ بمعرفة وظيفة غيرها من الكلمات وفي تأثيرها الفعال في الموقف الخاص.

وتتطلّب دراسة معاني الكلمات عند أصحاب نظرية السياق تحليلاً للسياقات والمواقف التي ترد فيها، حتى ما كان منها غير لغويّ، لذلك قسم اللسانيون السياق أو الموقع السياقي للكلمة Context of Situation إلى أربعة أقسام وهي:

1- السياق اللغوي.
2- السياق العاطفي.
3- سياق الموقف.
4- السياق الثقافي.

وسنورد شرحاً موجزاً وأمثلة توضيحية للأنواع الأربع السابقة.

1-السياق اللغوي: هو حصيلة استعمال الكلمة داخل نظام الجملة متجاورة وكلمات أخرى، ممّا يكسبها معنىً خاصاً محدّداً، فالمعنى الذي يقدّمه المعجم عادة هو معنى متعدّد، وعام، ويتّصف بالاحتمال، على حين أن المعنى الذي يقدّمه السياق اللغوي معنى معين له حدود واضحة وسمات محدّدة غير قابلة للتعدّد أو الاشتراك أو التعميم.

فكلمة "عين" تحمل معاني مختلفة باختلاف كلّ سياق ترد فيه، فلا نقف على اشتراك في المعاني حين ترد الكلمة ضمن السياق، مثلاً قولنا:

عين الطفل تؤلمه: العين هنا هي الباصرة.

في الجبل عين جارية: العين هي عين الماء.

هذا عين للعدو: العين هنا الجاسوس.

ذاك الرجل عين من الأعيان: العين هنا السيد في قومه.

إنّ كلّ سياق أتت فيه كلمة (عين) في الأمثلة السابقة يقدّم معنى واحداً تتجّه إليه الأفهام وتترك ما سواه، فلا يقع أي اشتراك في السياق، أمّا إذا بحثنا على كلمة (عين) في المعجم فنقف على معان متعدّدة هي من المشترك اللفظي، لا تتحدّد بدقّة إلا إذا وضعت في سياقات مختلفة. فطبيعة المعنى في المعجم تختلف عن طبيعته في السياق.

2-السياق العاطفي: هو الذي يحدّد طبيعة استعمال الكلمة بين دلالتها الموضوعيّة ودلالتها العاطفية. فثمّة كلمات تشحن عادة بمضمونات عاطفية نحو "حرية، عدل، حب".

ويحدّد السياق العاطفي أيضاً درجة الانفعال قوة وضعفاً، إذ تنتقى الكلمات ذات الشحنة التعبيرية القوية حين الحديث عن أمر فيه غضب وشدة وانفعال. كما تكون

طريقة الأداء الصوتية كافية لشحن المفردات بكثير من المعاني الانفعالية والعاطفية، كأن تنطق وكأنها تمثل معناها تمثيلاً حقيقياً، ولا يخفى ما للإشارات المصاحبة للكلام في هذا الصدد من أهمية في إبراز المعاني الانفعالية.

مثال كلمة (جدار) ترد على لسان الإنسان المهجّر "الفلسطيني خاصة" محملة بفيض من الانفعالات، فالجدار قاسٍ، مرّ، يمثل حاجز الفصل العنصري، وهو يمثّل القهر والفقد، ودلالته تختلف عما هو معهود عند البنّاء مثلاً، وطريقة الأداء الصوتي للشعر الذي يحمل هذه الكلمة "الجدار" كافية لشحن القصيدة بالانفعال الحقيقي، وخاصة إن سمعتها من شاعر فلسطين محمود درويش مثلاً. فالسياق يحدّد درجة الانفعال قوّة وضعفاً.

3-سياق الموقف: يدلُّ على العلاقات الزمانية والمكانية التي يجري فيها الكلام، وقد عبّر عنه البلاغيّون بمصطلح "المقام" فقالوا: "لكلّ مقام مقال".

إنّ مراعاة المقام تجعل المتكلم يعدل عن استعمال الكلمات التي تنطبق على الحالة التي يصادفها خوفاً أو تأدباً، وقد يضطر المتكلم إلى العدول عن الاستعمال الحقيقي للكلمات فيلجأ إلى التلميح دون التصريح، المهم وجود المناسبة بين الكلام والموقف.

4-السياق الثقافي: يظهر السياق الثقافي في استعمال كلمات معيّنة في مستوى لغوي محدّد، فالمثقّف العربي المعاصر يختار كلمة "زوجة" أو "مدام" للدلالة على امرأته، على حين يستخدم الرجل العادي كلمة "مَرَه" للدلالة على زوجته.

ويحدِّد السياق الثقافي الدلالة المقصودة من الكلمة التي تستخدم استخداماً عاماً. وبعض الكلمات تكون علامات على الانتماء العرقي أو الديني أو السياسي. وللسياق الثقافي أهمية بارزة في الترجمة، إذ تتطلب مقتضيات الفهم الصحيح والدقة العلمية أن يلمّ

المترجم بالسياق الثقافي للنص المترجم لكي ينقل مضمونه إلى اللّغة الأخرى بكلمات موازية من حيث الارتباط بالسياق.[1]

ج-الحقول الدلاليةSemantic Fields:

هي مجموعة من الكلمات التي ترتبط دلالتها بمفهوم محدد، ويعرّف د.عبد السلام المسدّي الحقول الدلالية بما يلي: ((أما الحقل الدلالي لكلمة ما فتمثّله كل الكلمات التي لها علاقة بتلك الكلمة، سواء أكانت علاقة ترادف أم تضاد أم تقابل جزئي أو كلي... فكل مجموعة نسمّيها الحقل، والحقل هو المعنى العام الذي يشمل كل الوحدات..)).

وقد تطوّرت نظرية الحقول الدلالية في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين حين بدأ عدد من اللسانيين السويسريين والألمان والفرنسيين وغيرهم بدراسة أنماط من الحقول الدلالية، فدُرِسَت الألفاظ الفكرية في اللّغة الألمانية الوسيطة، وألفاظ الأصوات والحركة، وكلمات القرابة، والألوان، والنبات، والأمراض، والأدوية والأساطير وغير ذلك.

إنّ دراسة معنى الكلمة يجب أن يكون من خلال الكلمات المتّصلة بها دلالياً، ومعنى الكلمة هو محصّلة علاقاتها بالكلمات الأخرى داخل الحقل المعجمي.

وعمد اللسانيون إلى اتجاهات متعدِّدة لتقسيم الحقول الدلالية، ولعلّ أهم تصنيف لهذه الحقول يقوم على الأقسام التالية:

1-الموجودات.

2-الأحداث.

3-المجرّدات.

4-العلاقات.

---

(1)انظر: مبادئ اللسانيات 358، 359، 360.

فمن الموجودات تتفرّع أقسام عديدة، فمنها: الحيّ وغير الحيّ، وللحيّ أجزاء تضم الإنسان وما يتصل به من مجموعات بشرية وصفاتها، وأما غير الحيّ فمنه الطبيعي والمركّب. الطبيعي منه ما هو جغرافي ونباتي ومائي وغير ذلك. والمركّب أو المصنّع يقسم إلى مواد معالجة كالأطعمة والأدوية، وإلى مواد ومنتجات جامدة كالسكن والأدوات الكتابية والأسلحة والملبوسات وغيرها.

ونجد من الأحداث ما هو طبيعي كالمناخ والنشاط الانفعالي كالحزن والخوف والنشاط الفكري كالإدراك والذاكرة والتفكير، والإحساس كالشمّ والتذوّق والإبصار وغير ذلك.

والمجرّدات مثل: الوقت والمقدار والجاذبية والسرعة والطاقة.

والعلاقات منها: ما هو مكاني أو زماني أو إشارات أو أمور عقلية.

إن أصحاب نظرية الحقول الدلالية يهتمون ببيان أنواع العلاقات الدلالية داخل كل حقل من الحقول المدروسة، وحصروا هذه العلاقات في الأنواع التالية:

1-الترادف: ما اختلف لفظه واتفق معناه.

2-الاشتراك: ما اتفق لفظه واختلف معناه.

3-الاشتمال أو التضمن أو العموم: وهو الدال الذي يكون مدلوله عاماً.

4-علاقة الجزء بالكل.

5-التضاد.

6-التنافر.

وليس من الضروري أن يتضمن كل حقل دلالي جميع هذه العلاقات.

وسنتناول بعض هذه العلاقات الدلالية باختصار لأنها سبقت مشروحة ومفصّلة في مباحث فقه اللّغة.

2- محور العلاقات الدلاليّة:

العلاقات الدلالية: مصطلح حديث النشأة يدل على العلاقات بين الكلمات من نواح متعدِّدة كالترادف والاشتراك والتضاد ونحو ذلك، وقد تولّد هذ المصطلح من دراسة الحقول الدلالية، لأن معنى الكلمة لا يتّضح إلا من خلال علاقاتها مع الكلمات الأخرى ضمن الحقل الذي ينتمي إليه. وقد درس علماء العرب هذه العلاقات ولهم فيها مذاهب وآراء مفصّلة ومتناثرة في كتب اللّغة، وسنعرض رأيهم باختصار في بعض هذه العلاقات، لنرى ما أضافه علماء اللسانيات حديثاً.

1-الترادف: لغة التتابع، واصطلاحاً: إطلاق كلمات عدة على مدلول واحد، أو هو: ما اختلف لفظه واتّفق معناه، واختلف علماء العربية في هذه الظاهرة بين مثبت لها ومنكر.

وكذلك في الدراسات اللسانية الحديثة منهم من يؤيد أو يفترض ظهور الترادف في اللغات الغربية، ومنهم من يضيق دائرة الترادف ويقيده بقيود. والرأي السائد لدى اللغويين قديماً وحديثاً ينكر وجود الترادف الكامل، فالترادف ضرب من تقارب الدلالة بسبب وجود تشابه بين المدلولات، ويذكر (أولمان) في هذا الصّدد أن الترادف التام نادر الوقوع لأنّ ذلك يفترض التماثل التام في جميع السياقات، وهو أمر غير وارد فعلاً، وإذا ما حدث هذا فإنّه تظهر بالتدريج فروق معنوية دقيقة تجعل كل لفظ يستقلّ بجانب من الجوانب المختلفة للمدلول الواحد.

ومن الأمثلة العربية على ذلك تسمية الدار منزلاً ومسكناً، لأنها مكان النزول للمسافر البدوي، وسمّيت مسكناً لأنها موضع السكينة والاستقرار بعد طول عناء، وسمّيت

بيتاً لأنها مكان البيتوتة. فكل لفظ من هذه الألفاظ يدلّ على المقصود نفسه بأحد هذه الاعتبارات التي يقصدها المتكلم أو يلاحظها.

2-الاشتراك اللفظي: ويطلق على اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر، أو هو الدال الذي يكون له أكثر من مدلول، ولم تتفق آراء علماء العربية حول وجود المشترك، فمنهم من أنكره ومنهم من أقرّ وجوده، لأن المعاني غير متناهية على حين أن الألفاظ متناهية.

وقد أقر اللسانيون في العصر الحديث ظاهرة الاشتراك، وعدّوها مظهراً من مظاهر الاقتصاد في استعمال الألفاظ وحفظها، وشكلاً من أشكال التخفيف عن الذاكرة، إذ يستطيع الإنسان بالاشتراك أن يخزّن الكثير من المعاني في القليل من الألفاظ. وتعدّد المعنى يلبّي الحاجة المتجدّدة للدلالة على معان وأشياء تتوالد باستمرار عبر تطوّر الزمن وتعدّد المكان واختلاف شروط الحضارة.

3-التضادّ: هو أن يكون للدال الواحد معنيان متضادّان، لذلك عدّه اللغويون نوعاً من المشترك بوجه عام.. وقد اهتمّ علماء اللّغة العرب قديماً بهذه الظاهرة ومنهم من أثبتها وأنكرها بعضهم، وألّفوا كتباً كثيرة في ذلك.

أما اللسانيات الغربية فإنها لم تولِ التضاد حقّه من العناية، واكتفت بالإشارة إليه، وسمّته بمصطلح يميّزه وهو: Antonym وحاولت أن تفسّر ظهوره تفسيراً نفسياً اجتماعياً تختلط فيه الأساطير بالعقائد والعواطف. وهناك أسباب كثيرة تبرز الأضداد في اللغات جميعاً منها ما يتصل بالسمات ومنها ما يتصل بالاقتراض والعوامل النفسية والتأدبية وغير ذلك، مما سبق ذكره في كتب فقه اللّغة.

3- محور التغيّر الدلاليّ:

أ-التغير الدلالي محور رئيس من محاور الدرس الدلالي الحديث، فقد شغل علماء اللّغة موضوع تغيّر المعنى، وصور هذا التغيّر وأسباب حدوثه والعوامل التي تتداخل في حياة الألفاظ أو موتها.

إنّ المفردات عناصر لغوية غير ثابتة أو مستقرة، لأنها قابلة للتأثّر بالزمن وظروف المجتمع وتطوّر الثقافة والعلوم، فالحياة تشجّع على تغير المفردات، وقد تقضي على بعض الكلمات القديمة، أو تحوّر معناها، وتتطلّب خلق كلمات جديدة.

وقد ارتبطت فكرة البحث عن قوانين التغير اللغوي في المباحث الغربية بفكرة التطور وأصل الأنواع التي ظهرت عند الباحث الإنجليزي تشارلز دارون عام 1888م، ومفاد ما رآه دارون أنّ التطوّر يطرأ جبرياً على كل شيء، وأن الكائنات الحية ترقى في أثناء هذا التطور من البسيط إلى المعقّد، ومن الضعيف إلى القوي وفق قانون "الانتقاء الطبيعي" وبعد مرحلة صراع مع عوامل البيئة المختلفة.

وطبّق كثير من الدارسين نظرية دارون على اللّغة لبحث التطوّر الملحوظ في قطاعاتها كافة، وبالغ كثيرون في تطبيقها حتى زعموا أن اللّغة كائن حيّ بطبيعته الذاتية، وأنّ تطوّر اللّغة محكوم بقوانين ثابتة كالقوانين التي تحكم مظاهر التطوّر الأخرى في الطبيعة.

ولكن نظرية دارون ما لبثت أن لقيت معارضة شديدة وغدت غير مقبولة لدى معظم اللغويين اللسانيين المحدثين الذين يرفضون المعايير الثابتة في دراسة اللّغة، ويرون أن اللّغة مؤسسة اجتماعية، وأنظمة اللّغة ينبغي دراستها في إطاري الزمان والمكان؛ ولهذا فضل اللسانيون مصطلح "التغيّر" على مصطلح "التطوّر". وقد تعقّب اللسانيون مظاهر التغير اللغوي وأسبابه، ووقفوا على جملة من الأسباب والعوامل سنذكر أبرزها.

عوامل التغير اللغوي:

أولاً: العوامل الداخلية اللغويّة: وتشير هذه العوامل إلى كل ما يتّصل باللّغة كالأسباب الصوتية والاشتقاقية والنحويّة والسياقية، فاللّغة أصوات، وهي عرضة للتغير والإبدال، فإذا تغيّر صوت واحد من أصوات الكلمة تغيّر معناها، ومن ذلك في العربية لفظ: "الغلط" و"الغلت" فالغلط بالطاء- الخطأ عامة، و"الغلت" الخطأ في الحساب خاصة وكذلك "الخضم والقضم"، فالخضم الأكل بأقصى الأضراس، أو هو خاص بأكل الشيء الرطب، والقضم الأكل بأطراف الأسنان، أو أكل الشيء اليابس، فإذا افترضنا أن إحدى الكلمتين أصل للأخرى، فهذا يعني أن تغير الصوت من الخاء إلى القاف يغيّر المعنى.

وتسهم الأسباب الاشتقاقية التي تنتج عن مجانسة في الأصول في إبراز أمثلة من تغيّر الدلالة، ومن ذلك كلمة "تحليل" فنسمّي شرح النص تحليلاً أدبياً، والتحليل جعل الشيء حلالاً وهو ضد التحريم.

فتقارب الكلمتين "حلّل" بمعنى شرح وفسّر، و"حلّل" بمعنى أباح جعل المجانسة في الأصول تؤدي إلى تغيّر الدلالة.

وتؤدي الأسباب النحوية والموقعيّة في السياق اللغوي إلى كثير من التغيّر الناشئ من كثرة استعمال كلمة في موضع معيّن. من ذلك في العربية كلمة (الفشل) التي تدلّ على الضعف، غير أن كثرة استشهاد الناس بورودها في القرآن الكريم في قوله تعالى: (ولا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا)[1] في موطن التنازع المؤدي إلى الإخفاق عادة جعلهم يظنون أن معنى الفشل هو الإخفاق. وقد سبق دور السياق في التأثير على المعنى.[2]

---

(1)الأنفال 46/8.

(2)انظر مبادئ اللسانيات 388.

ثانياً: العوامل الخارجية: ونعني بها كل ما يؤثر في الدلالات مما لا صلة له باللّغة، وتتضمن العوامل الاجتماعية والتاريخية والثقافية والنفسية التي تؤدي إلى تغيّر المعنى.

فكلمات مثل "الدار" و"المنزل"، و"الأثاث والفرش" تغيّرت معانيها بسبب التطور الاجتماعي والحضاري، وكذلك كلمة "السيّارة" في الأصل القافلة، ثم غدت تدل على هذه الآلة كثيرة السير. و"الجامعة: الغلُّ يجمع اليدين إلى العنق، والقدر الجامعة الكبيرة لأنها تجمع الكثير من الطعام" ثم أطلقها الناس على أرقى المعاهد الثقافية والعلمية.

وممّا أصابه التغيّر لأسباب نفسية الألفاظ الدالّة على الأذى والألم، وكلّ ما يتشاءم به أو منه، ولذلك طرحت هذه الألفاظ واختيرت ألفاظ أخرى فيها التفاؤل والبشرى، فقد عبّر العرب بالسليم عمّن لدغته الحيّة تفاؤلاً بشفائه، وكنّوا عن الأعمى بأبي بصير لعلّه يرتدّ إليه بصره.

ب-أشكال التغيّر الدلالي:

وجد علماء العربية بعد متابعتهم لدلالات الألفاظ أن لتغير المعنى صوراً عديدة، أبرزها خمس، وهي:

1-تعميم الدلالة الخاصة.

2-تخصيص الدلالة العامة.

3-الارتقاء باللفظة من أفق الحسّ إلى أفق التجريد.

4-المجاز المرسل.

5-الاستعارة والتشبيه.

وقد شاع في الدراسات اللسانية الدلالية الحديثة تقسيم منطقي اعتمده بريال (Breal) وغيره من علماء الدلالة، ويظهر هذا التقسيم مطّرد الأحكام، فصاغوا قوانين ثلاثة صياغة محكمة، وهي:

1-تضييق المعنى القديم الواسع أو تخصيصه إذا كان المعنى الجديد أضيق من القديم.

2-التعميم أو توسّع المعنى إذا كان المعنى الجديد أوسع من القديم.

3-نقل المعنى من مجال إلى آخر، دون توسيع ولا تضييق، إذا كان المعنى الجديد مساوياً للقديم.

وسنضرب مثالاً على كلّ نوع من هذه الأنواع مع شرح موجز.

1-تخصيص الدلالة العامة وتضييقها: ويعلِّل اللسانيون تخصيص المعنى العام تعليلاً يجمع بين التطوّر التاريخي للدلالة والتصور الفكري الدقيق للمعنى. فالتطور التاريخي معناه أن تفارق الكلمة دلالتها العامة إذا انقرضت الأشياء الكثيرة التي كانت تدلّ عليها، وبقي منها شيء واحد، والتصور الفكري جوهره أن التقدم العلمي ينفي عن الألفاظ الدلالات الغائمة، ويحاول أن يخصّها بأمور متفرّدة. مثال ذلك: "الحجّ" عند الناس القصد عامّة وزيارة كلّ مكان، ولكن دلالته اقتصرت على زيارة البيت الحرام في أيام معدودة من أشهر معلومة. وكلمة "الإسكاف" هو اسم لكل صانع عند العرب، غير أن الناس خصّوا به صانع الخفاف. وكذلك كلمة "poison" الإنجليزية والفرنسية، ومعناها في هاتين اللغتين السُّمّ أو الجرعة السامة. يقول أولمان: ((إن الجرعات السامة دون غيرها هي التي استرعت

الانتباه، واستأثرت به لسبب أو لآخر، وبهذا تحدّد المدلول وأصبح مقصوراً على أشياء تقلّ في عددها، عمّا كانت عليه في الأصل إلى حدٍّ ملحوظ)).[1]

وكلمة "meat" في الإنجليزية كانت تدلّ على الطعام مطلقاً، ثمّ غدت تدلّ على اللحم خاصّة.

2-تعميم الدلالة الخاصة: ويكون بتوسيع معنى الكلمة وما تشير إليه من مفاهيم، ويعلِّل اللسانيّون تعميم الدلالة الخاصة بالتخفف من عبء الدقة في التعبير، والاكتفاء بالإشارة إلى المعنى لإراحة العقل من عناء البحث عن المفردات الخاصة المحدّدة، فمراعاة الفروق اللغوية الدقيقة لا يشيع إلا لدى الفئات المثقّفة من المجتمع. ومثال التعميم في العربية كلمة "الرائد" هو الرجل الذي يطلب لأهله الكلأ أصلاً، ثم توسَّع المعنى فغدا "الرائد" الذي يطلب شيئاً مع التقدّم والسبق في أيّ مجال، ومنه رائد الفضاء، ورتبة عسكرية متقدّمة، والرائد الذي يتقدّم شعبه في مسيره نحو أهدافه. وكذلك كلمة "الراكب" التي كانت لراكب البعير خاصّة ثم أطلقت على من يركب كل دابة وكل آلة من الجواد إلى الطيارة.

وفي الفرنسية الفعل arriver كان يدلّ على الوصول إلى الشاطئ، ثم صار يدل على كل وصول. وربما يكون الفعل الإنجليزي arrive قد سلك المسلك نفسه استناداً إلى ما يذهب إليه اللسانيون الغربيون من حتمية التغير الدلالي وفق قوانين مطردة تنتظم اللغات كلها.

---

(1)دور الكلمة: أولمان 162.

3-نقل المعنى من مجال إلى آخر: جانب مهمّ في تغير الدلالة، وذلك لتنوعه واشتماله على أنواع المجازات. والمعنى الجديد هنا ليس أخصّ من المعنى القديم ولا أعمّ، إنما هو مساوٍ له.

وقد اهتمّ اللغويون القدامى والمحدثون بالمجاز المرسل والاستعارة لما لهما من أثر بالغ في تغيّر المعنى.

وأمثلة ذلك كثيرة، منها: كلمة "تقليد" ترجع إلى مادة "قَلَد"، وقَلَدَ الحَبْل إذا فتله، ومنه القِلادة التي تُقْلد- تُفتل- من خيط وفضّة وغيرهما، وبها شُبّه كلّ طَوْق. وقلَد الماء واللبن والسمن أي جمعها وضمَّها، وبذلك صار كل ما لوي على شيء أو فُتِل أو جُمِع قد قُلِد، واتّباع الإنسان غيره دون حجّة أو دليل "تقليد"، وهو قبول قول الآخر واتّباعه فيما يقول معتقداً للحقيقة فيه من غير نظر وتأمّل، كأنّه جعل قول الآخر وفعله قلادة في عنقه، والمحافظة على شرعية المجتمع وعاداته واتباعها والاعتقاد بصلاحيتها سمّي بـ"التقاليد".

وكذلك كثير من الكلمات والعبارات منقولة الدلالات وتحمل الاستعارة والمشابهة مثل: "رِجْل الكرسي" و"عُنق الزجاجة" و"عين الباب" و"عقربا الساعة" و"فكّا الكماشة" وغيرها.

ومن أمثلة ذلك ما درسه أولمان تحت عنوان "العلاقة بين المدلولين" من صور متعدِّدة كلمة "مكتب"، فالمكتب: منضدة الكتابة، ثمّ غدا دالّاً على الحجرة التي توضع فيها المنضدة المقصودة بسبب المجاورة، ثم غدت دلالته أوسع تشير إلى هيئة حكومية أو شعبية تدار منها أعمال متنوّعة، كمكتب المحامي والمهندس ومكتب الإحصاء وغيرها. وأمثلة ذلك أكثر من أن تحصى.

ولا بد من الإشارة إلى أن علماء العربية قد تنبّهوا إلى الدرس الدلالي بأقسامه وأنواعه وأسبابه وعالجوه في كتبهم على نحو تطبيقي معمّق، ومؤلّفاتهم خير شاهد على

ذلك، وإنّ نظرتهم المعيارية التي جعلت اللسانيين في العصر الحديث ينكرون كثيراً ممّا جاؤوا به، حفظت لنا اللّغة وارتقت بها حضارياً ومعرفياً. لكنّ المناهج اللسانية الحديثة التي امتازت بالوصفية والخروج عن إطار التّقعيد الملزم، والتزام الفصيح الثابت، وأولت اللهجات المسموعة عناية شديدة، جعلت من الدرس الدلالي الحديث أوسع وأشمل، وشقّت طريقاً واسعاً للمؤلفات الدلالية المتخصّصة. فغدا علم الدلالة أوسع مجالاً من بقية الدراسات اللسانية الصوتية والصرفية والنحوية، وتبوّأ قمّة الدراسات اللغوية اللسانية الحديثة.

الفصل الرابع

أبحاث لسانية متعدّدة، ونصوص تطبيقية ونظرية

أولاً: اللسانيات الحديثة (الأسلوبيات):

شهدت علوم اللغة في القرن العشرين تطوراً كبيراً، إذ تعاقبت النظريات واختلفت الاتجاهات، فكثرت المدارس وتنوّعت المذاهب، وأصبح من الشاقّ الوقوف عليها كلها لما أُلّف من بحوث نظرية وتطبيقية تصعب متابعتها وحصرها. وكان من آثار هذا التطور ظهور الأبحاث الأسلوبية التي تُعنى بدراسة النصوص المنطوقة والمدونة دراسة "تجمع بين مستخلصات اللسانيات من جهة واستقراءات النقد الأدبي من جهة أخرى"(1)، فالأسلوبية علم يدرس الخصائص اللغوية التي تنتقل بالكلام من لغة الخطاب النفعي إلى لغة الخطاب الأدبي.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن دراسة الأسلوب كانت متجذرة في الدراسات الأدبية القديمة، العربية وغير العربية، إلا أنها كانت أكثر ارتباطاً بالدراسات البلاغية خاصة، فقد ذهب بعض الأسلوبيين إلى "اعتبار البلاغة أسلوبية القدامى وأنها تحل محلها وتواصل مهمتها معدلة في أهدافها ووسائل عملها"(2). فالبلاغة اهتمت بالشكل إلى حد بعيد، وجعلت النصوص الرفيعة مثالاً يحتذى في كل مقام مشابه للمقام الذي قيل فيه هذا النص المثال، على خلاف الأسلوبية التي ترفض التشابه في النتاج الأدبي وتدعو إلى التميز والفردية.

---

(1) قراءات مع الشابي والمتنبي، عبد السلام المسدي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1981، 129-130.

(2) مدخل إلى الأسلوبية، الهادي الجطلاوي، عيون، الدار البيضاء، 1992، 20.

نشأة الأسلوبية:

لم يُختلَف في شيء كما اختُلِف في بداية علم الأسلوب، فمن النقاد من يرجعها إلى أرسطو، ومنهم من يرجعها إلى قول بوفون في القرن الثامن عشر (الأسلوب هو الرجل)، إلا أنه يمكننا القول: إن كلمة الأسلوبية ظهرت خلال القرن التاسع عشر حيث "أطلق فون درجابلنتس عام 1875 مصطلح الأسلوبية على دراسة الأسلوب عبر الانزياحات اللغوية البلاغية في الكتابة الأدبية"[1]، لكنها لم تصل إلى معنى محدد إلا في أوائل القرن العشرين عندما وضع دي سوسير أسس علم اللغة الحديث الذي رفض المفاهيم القديمة وحدود اللغة كمنظومة علامات لا تعرف إلا ترتيبها الخاص، وقد أثار في كتابه عدداً من القضايا أفادت منها الأسلوبية، وهي:

- التفريق بين اللسان واللغة والكلام.
- الفرق بين مناهج الدراسة الوصفية، التي وجه اهتمامه إليها، وبين المناهج التاريخية، التي ثار عليها.
- وضح العلاقة بين الدال والمدلول، وبيّن طبيعة العلامة اللغوية.

وقد أفاد من هذه الدراسة شارل بالي، أحد تلاميذ سوسير وخليفته في كرسي علم اللغة العام بجامعة جنيف، في بناء علم الأسلوب في العصر الحديث والذي يعود الفضل إليه في تأسيس المدرسة التعبيرية.

مجالات الأسلوبية:

المجال الأول: الأسلوبية النظرية: وغايتها إرساء القواعد النظرية التي ينطلق منها المحلل الأسلوبي في تحليله للنص الأدبي.

---

(1) الأسلوبية، محمد عزام، 17.

المجال الثاني: الأسلوبية التطبيقية: وغايتها إظهار خصائص النص الأدبي من حيث إنه شكل فني يبغي المنشأ من طريقه التأثير والإقناع، ومدخلها في التطبيق هو لغة الأثر الأدبي.[1]

ونستطيع القول: إن كلا المجالين متداخلان، ولا غنى لأحدهما عن الآخر.

موقع الأسلوبية:

هناك آراء ثلاثة في تحديد موقع الأسلوبية على الخريطة الألسنية:

1. الرأي الأول: الأسلوبية فرع من علم اللغة: ويرى أصحاب هذا الاتجاه أن البحث الأسلوبي ينبغي أن يكون فرعاً من علم اللغة. ويتزعم هذا الاتجاه رينيه ويليك.

2. الرأي الثاني: الأسلوبية حلقة وصل بين اللغة والأدب: ويخالف أنصار هذا الرأي سابقيهم، إذ يرون أن الأسلوبية ليست مجرد فرع من علم اللغة، لكنها نظام خاص يفحص الظاهرة نفسها من وجهة نظر أسلوبية خاصة. ومن أبرز الدعاة إلى هذا الرأي ستيفن أولمان.

3. الرأي الثالث: الأسلوبية مرحلة وسطى بين علم اللغة والنقد: ويرى أصحاب هذا الرأي أن الأسلوبية تحتل موقعاً وسطاً بين النقد الأدبي وعلم اللغة، بل هي تحوي كليهما معاً. فوظيفتها- طبقاً لهذا المفهوم- التوسط بين علم اللغة والنقد. فمفاهيمها تنطوي بالضرورة على كل من هذين النظامين.[2]

إلا أنه يمكننا القول: إن الأسلوبية تتوسط المناهج والمواضيع[3] الآتية:

---

(1) انظر للاستزادة: الأسلوبية، مدخل نظري ودراسة تطبيقية، فتح الله سليمان، 36.

(2) انظر الأسلوبيةمدخل نظري ودراسة تطبيقية، فتح الله سليمان، 42/41.

(3) مع الأخذ بالاعتبار الفرق بين المنهج والموضوع.



المدارس الأسلوبية:

1-الأسلوبية التعبيرية:

أصبحت الأسلوبية علماً على يد شارل بالي عندما لاحظ ما لدى أستاذه سوسير من نقص في تصوره لإشكالية اللغة ورأيه في نظامها. فقد "تجاوز بالي ما قاله أستاذه، وذلك من خلال تركيزه الجوهري والأساسي على العناصر الوجدانية للغة"[2]. فأرسى قواعد الأسلوبية كما أرسى أستاذه قواعد الألسنية.

وقد أثمر ذلك عدداً من المؤلفات أهمها دراسته المشهورة (مباحث في الأسلوبية الفرنسية) عام 1902، وكتاب (اللغة والحياة) عام 1913، الذي طرح فيه آراءه في اللغة وعلاقتها بمختلف أوجه حياة المتكلم، وهي آراء تقوم من نظريته في الأسلوب مقام الأساس، إذ لا بد لكل تصور للأسلوب من تصور مسبق لجهاز اللغة باعتبار الأسلوب حدثاً تعبيرياً ونشاطاً لغوياً.[3]

فعندما يتكلم الباث يبرز في كلامه نواة ثابتة هي المحتوى اللساني، وجانباً متحولاً هو المحتوى الأسلوبي الذي هو إضافة تزاد على نواة الخطاب الثابتة. وفي هذا الجزء المتحول يظهر أسلوب الفرد. ورأى بالي أن اللغة تستمد تعبيريتها من مصدرين هما:

---

(1) Stylistics and the teaching of literature, H.GWiddowson, p:4

(2) الأسلوبية: مفاهيمها وتجلياتها، موسى ربابعة، 10.

(3) انظر الوجه والقفا، حمادي صمود، الدار التونسية للنشر، تونس، ط1، 1988، 89-90.

● الخواص الطبيعية: ونجدها في بعض الأشكال اللغوية التي تحمل بذاتها خصائص تعبيرية معينة، وتكون في المستوى الصوتي، والمستوى الصرفي، والمستوى التركيبي.

● والخواص الاستدعائية: وهي التي تُستمَد من العلاقة بين العبارة والظروف والمواقف والأوساط التي تستخدم فيها.(1)

ومهمة علم الأسلوب عند بالي دراسة نماذج هذه الخصائص التعبيرية في اللغة، وهنا يقترح بالي طريقتين لاستخراج هذه الخصائص وهما:

– الدراسة الخارجية: وتقوم على مقارنة وسائل التعبير في لغة معينة بوسائل لغة أخرى لمعرفة هيكل اللغة الأساسي وبنيتها العامة. ومشكلة هذه الدراسة تأتي من تداخل ميداني قضايا النحو ومعطيات الأسلوب، فلا بدّ للدارس أن يكون على درجة عالية من الفطنة حتى يسلم من الخلط بين النحو والأسلوب.

– والدراسة الداخلية: وتقوم على كشف العلاقة بين أنماط التعبير في نطاق اللغة الواحدة وبين الفكر، وتأثير هذه العلاقة في العبارة، مع مراعاة الوسط الاجتماعي والثقافي المحيط بالباث أثناء كتابته، فالشحنة العاطفية التي يضعها المتكلم في تعبيره تختلف باختلاف ظروف مقاله ولاسيما حال المخاطب.(2)

ومن ثمة يتبين أن أسلوبية بالي دراسة لغوية اهتمت باللغة العادية دون اللغة الأدبية القائمة على القصد والبعيدة عن العفوية والتلقائية، وهذا من أهم الأسباب التي دعت الكثير إلى تجاوز حدود ما رسمه بالي في هذه الأسلوبية "فالتعبيرية اتسعت فيما بعد

---

(1) انظر للاستزادة الأسلوبية التعبيرية، أسسها ونقدها، محيي الدين محسب، بريدة، نادي القصيم الأدبي، 1998، 25 وما بعدها.

(2) انظر الوجه والقفا، حمادي صمود، 98-99.

لتشمل دراسة التعبير الأدبي[1]".

الأسلوبية المثالية:

يؤكد المؤرخون للأسلوبية على أهمية تأثير المناهج الفلسفية في مناهج الأدب، وبرز ذلك في أغلب المناهج الأسلوبية ولا سيما المنهج المثالي الذي كان كروتشه (B Crocei) من أبرز الدعاة إليه فهو يرى أن الدراسة اللغوية لا يمكن أن تتعلق بالكلام المعزول الكامن بالقوة، وإنما اللغة المستعملة هي الجديرة بالدراسة. "وهو قليل الاعتداد بالرأي القائل إننا نتكلم حسب وسع المعجم ومقتضيات التركيب ومن ثم كان يرفض المقولات النحوية ويرى أن الدراسات اللسانية بمختلف فروعها تقوم على تقطيع غير طبيعي لظاهرة اللغة"[2].

ولقد تأثر فوسلر (K Vossler) بهذه المفاهيم المثالية وعمل بها في المجال الأدبي، فاعتبر أن وظيفة النقد الأدبي تتمثل في الكشف عن الواقع الروحي للكاتب بالاعتماد على أسلوبه.[3]

إلا أن عمل فوسلر بقي ضمن البحث عن العلاقة بين أسلوب الفرد والمستوى اللغوي المحدد تاريخياً، وهو ما ثار عليه ليو سبيتزر[4] الذي كان "ممارساً أكثر مما كان منظراً، وهو في ذلك عالم أسلوبية في الصميم[5]، فقد ركز عمله على اللغة الأدبية في الدراسة الأسلوبية، ونتيجة لذلك اهتم بالكاتب الذي يتناول اللغة بطريقته الخاصة. وأراد

---

(1) الأسلوب والأسلوبية، بيير جيرو، تر: منذر عياشي، مركز الإنماء القومي، بيروت، 39.

(2) انظر الوجه والقفا، حمادي صمود، 113.

(3) انظر مدخل إلى الأسلوبية تنظيراً وتطبيقاً، الهادي الجطلاوي، 61.

(4) انظر الوجه والقفا، حمادي صمود، 116.

(5) الأسلوب، مولينيه، تر: بسام بركة، 74.

دراسة شخصية الكاتب من خلال الكلام المكتوب، فبدلاً من أن يدرس النص الأدبي استناداً إلى نفسية الكاتب وظروفه حاول أن يتعرف إلى نفسية الكاتب وظروفه الاجتماعية من خلال كتاباته ومن هنا ابتكر منهجاً خاصاً به أطلق عليه (الدائرة الفيلولوجية) الذي يقوم على قراءة النص أكثر من مرة حتى يصل بالحدس إلى أثر أسلوبي معين، فيفسره نفسياً ويصف معناه التعبيري ثم يعاود القراءة مرات متتالية بشكل منظم حتى يتأكد من تكرار هذا الأثر في النص ذاته، فإذا تأكد له ذلك وسّع حلقة الدراسة حتى تشمل أعمال عصر معين، فيكون بذلك قد تشكل لديه السمات الأسلوبية لذلك العصر.[1]

الأسلوبية البنيوية:

وهو منهج يعتمد الأسس البنيوية ومنطلقاتها في مقاربة النصوص وتحليلها، ومما يؤكد أن الأسلوبية والبنيوية قد بدأتا بداية حقيقة وأنهما انطلقتا من بؤرة واحدة، الأسسُ التي قامت عليها الأسلوبية، وهي أفكار دي سوسير اللغوية ولا سيما تفريقه بين اللغة والكلام، وعنايته بالسياق اللغوي من حيث علاقة بعض المفردات ببعض أفقياً وعلاقة المفردة بغيرها من المفردات التي تنتمي إلى حقلها الدلالي عمودياً.[2] فهو منهج يقوم على تطبيق مناهج التحليل اللساني على الأدب للوصول إلى الأدبية التي عرفها جاكبسون بأنها "تسقط مبدأ المساواة في محور الانتقاء على محور التنسيق، وأنها تهدف إلى المرسلة من حيث هي مرسلة"[3].

---

(1) انظر الأسلوبية، مولينيه، تر: بسام بركة، 74، وعلم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، صلاح فضل، 75، الاتجاهات الأسلوبية، إبراهيم عبد الله أحمد الجواد، 32.

(2) انظر الاتجاهات الأسلوبية الحديثة، إبراهيم عبد الله الجواد، 176.

(3) الأسلوبية، جورج مولينيه، 86.

ونستطيع القول إن الأسلوبية البنيوية قد ظهرت في آراء نقاد ثلاثة: رومان جاكبسون ومايكل ريفاتير ورولان بارت.

ثانياً: السميائية وعلاقتها باللغة:

جاءت محاولات عالم اللغة السويسري فرديناند دي سوسير 1857-1914 للعناية بالمستوى البرجماتي للسميولوجيا Semiology أي بفاعلية العلامة وتوظيفها في الحياة العملية وفي عمليات الاتصال ونقل المعلومات. وذلك من خلال دعوته إلى علم السميولوجيا فيقول: "اللغة هي نظام من العلامات الذي يعبّر عن الأفكار، ولذلك فهي مشابهة لنظام الكتابة الأبجدية للصم، وللطقوس والمذاهب الرمزية، ولصيغ المجاملة، وللإشارات العسكرية، ولكنها أهم من كل هذه الأنظمة لقد أصبح ممكناً تصور ذلك العلم الذي يدرس حياة العلامات داخل المجتمع، ولا بد أن يكون جزءاً من علم النفس الاجتماعي ومن ثم من علم النفس العام، وسوف أسميه Semiology علم العلامات وهو سيبين تشكل العلامات، وعلم اللغة هو جزء فقط من العلم العام لعلم العلامات، وإن القوانين المكتشفة بوساطة علم العلامات (السميولوجيا) سوف تكون ملائمة لعلم اللغة".

ومن هنا يتضح أن سوسير يرى أن علم اللغة جزء من علم العلامات (السيميائية) وقد استطاع أن يطور هذا العلم بنقله من الدراسات الفلسفية إلى الدراسات اللغوية لا سيما علم اللغة. فإذا كان تشارلز ساندرز بيرس عُني بماهية العلامة ودراسة مقوماتها وطبيعتها وارتباطها بالموجودات الأخرى التي تشبهها، فإن سوسير عُني بالعلاقة بين العلامة وعلم اللغة، وبفاعلية العلامة وتوظيفها في الدراسات اللغوية، ويرى أن "الخصائص التي تميّز السيميولوجية من جميع المؤسسات الأخرى تظهر بوضوح في اللغة، وأن مشكلة اللغة سيميولوجية بشكل رئيس، وأن كل التطورات استمدت أهميتها من

تلك الحقيقة المهمة، وإذا كنا سنكتشف الطبيعة الحقيقية للغة فعلينا أن نعرف الجوانب المشتركة بينها وبين جميع الأنظمة السيميولوجية.

تعريف السيميائية: علم الإشارات. وإن كان استعمال مصطلح (علم) مضلل. حتى الآن لا تملك السيميائية مسلّمات نظرية أو منهجيات تطبيقية يقوم حولها إجماع واسع.

إن الإنسان يقرأ الكون المحيط به من خلال علامات، ويعبّر عنه من خلال أنظمة مختلفة من العلامات سواء كانت لغة أو رسماً أو رموزاً. كما قال ألانو ديلي إيزولي: "إن كل كائنات الدنيا، هي لنا كتاب ورسم، يتجلى في مرآة". إننا نعيش وسط أنظمة من العلامات نحقق من خلالها عمليات التواصل وننجز بصفة ناجعة أعمالنا اليومية حتى أبسطها. ولربما كان الإنسان البدائي يستعمل أقلّ عدد من العلامات للتواصل ويعتمد على العلامات الطبيعية لفهم الكون المحيط به. أما اليوم فقد تطور عالَم العلامة، وتعقد، حتى صرنا سجناء الكون العلامي، بل صرنا من دون أن ندري علامة وسط علامات أخرى.

علاقة السيميائية باللغة:

قال جاكوبسون: اللغة منظومة سيميائية خالصة، لكن يجب أن تأخذ دراسة الإشارات بعين الاعتبار البنى السيميائية التطبيقية، كأسلوب البناء والطهي واللباس، فكل لباس يلبّي حاجات نفعية، وتظهر فيه في الوقت نفسه خصائص سيميائية متنوعة.

وقد رأى سوسير أن الألسنية أحد فروع "السيميولوجيا": فمن يريد أن يكتشف الطبيعة الحقيقية للمنظومات اللغوية عليه أن ينظر أولاً في القواسم المشتركة بين هذه المنظومات والمنظومات التي تنتمي إلى النوع نفسه (الطقوس والأعراف).

ولكن رولان بارت يعلن أنه يجب علينا قلب مقولة سوسور، وأن نؤكد أن

السيمولوجيا أحد فروع الألسنية.

لماذا ندرس السيميائية:

نتعلم من السيميائية أننا نعيش في عالم من الإشارات. وأنه لا يمكننا فهم أي شيء إلا بوساطة الإشارات والشيفرات التي تنظمها. وأن الاستغناء عن دراسة الإشارات يعني أننا نترك للآخرين التحكم بعالم المعاني الذي نعيش فيه.

وقد تعددت الدراسات السيميولوجية منذ أوائل القرن العشرين، وتضمنت العديد من الدراسات السيميائية. وكذلك الأمر بالنسبة للدراسات العربية خاصة في العقود الثلاثة الأخيرة. وأما عن مجهود اللغويين والنقاد الغربيين فسنذكر منهم الفيلسوف الأمريكي تشارلز ساندرز بيرس C.S.Peries 1839-1914 واللغوي السويسري فردينارند سوسير Ferdinand de Sassure 1857-1914.

1-تشارلز ساندرز بيرسC.S.Peirs: عرف بيرس العلامة: "بأنها تمثيل لشيء ما، بحيث يكون قادراً على توصيل بعض جوانبه أو طاقاته إلى شخص ما".

إلا أنه كان شديد الاهتمام باللغة والأدب. وقسم العلامة إلى أيقونة Icon ومؤشر Index، ورمز Symbol وذلك على النحو الآتي:

I-الأيقونة Icon:

وهي عند بيرس "علامة تحيل إلى الشيء الذي تشير إليه بفضل خواص تمتلكها، خاصة بها وحدها. فقد يكون أي شيء أيقونة لأي شيء آخر سواء كان هذا الشيء صفة أو كائناً فرداً أو قانوناً، بمجرد أن تشبه الأيقونة هذا الشيء وتستخدم علامة له" أي إن الأيقونة تشبه الشيء الذي تشير إليه وتشترك معه في صفة. أو يكون بينها وبين

المشار إليها عامل مشترك يربط بينهما مثل الرابط بين أصل الشيء وصورته أو الإنسان وظله أو القرين وما يقترن به.

وعلى الرغم من فضل السبق لبيرس في الإشارة إلى أقسام العلامة، إلا أن بعض الدارسين ومنهم على سبيل المثال لوتمان الذي رأى "أن العلامة الأيقونية لا تقف عند حد التشابه، بل تمتد إلى أبعاد ثقافية أخرى، فيرى أنه على طول التاريخ البشري، ومهما أوغلنا في الماضي لا نجد إلا نوعين من العلامات مستقلين ومتماثلين ثقافياً. هذان النوعان هما الكلمة والصورة لكل منهما تاريخها ولكن يبدو أن وجود كل من النظامين أمر ضروري لتطور الثقافة.

فضرورة توسيع الأفق الدلالي للعلامة الأيقونية تتناسب مع مستويات التأويل والتعدد الدلالي والتفجير اللغوي للنصوص الإبداعية المعاصرة. وهذا لا يتعارض مع مفهوم العلامة، بل يؤدي إلى تعدد أبعادها، فالقضبان علامة مباشرة للقطار والعكس صحيح ومن الممكن أن يكون القطار علامة إيحائية على بعد دلالي آخر، كاستمرارية الحياة وديمومتها وجريانها الأبدي.

II-المؤشر "Index":

وهو على حد قول بيرس: "علة تحيل إلى الشيء الذي تشير إليه بفضل وقوع هذا الشيء عليها في الواقع".

والمؤشرات بهذا المفهوم عند بيرس هي علامات طبيعية أيضاً مثل نزول قطرات المياه من السماء مؤشر لسقوط الأمطار، وسكب الدموع من العينين مؤشر للحزن أو البكاء، والضحك مؤشر للسعادة أو الفرح أو البهجة، أو على حد رؤية بيرس نفسه أن العلامة هي علاقة مجاورة بين الإشارة والشيء المشار إليه مثل: ارتفاع الحرارة مؤشر للمرض، والغيوم مؤشر للمطر، والدخان مؤشر للنار. على أن هذا المفهوم لا يكتمل إلا

بتضافر العلامات الطبيعية والعرفية معاً، ولا نبالغ حين نقول: "إن العلامات العرفية تشكل ملمحاً بارزاً في المؤشر لأن بيرس قد أدرج بين المؤشرات بعض العلامات اللغوية- وهي أسماء الإشارة والظرف والضمائر- فكيف يمكن اعتبار مثل هذه العلامات- هي علامات عرفية محضة- ضمن العلامات الطبيعية؟"

ولذلك يقول: "إن أسماء الإشارة (هذا) و(ذلك) مؤشرات، لأنها تتطلب من المستمع أن يركز انتباهه، وأن يستخدم قوة ملاحظته، وأن يؤسس علاقة حقيقية بينه وبين الشيء الذي تحيل إليه الأسماء، وتكمن فاعلية أسماء الإشارة في أنها تحفز المستمع إلى هذا السلوك وإن فشلت في هذا فلا يفهم معناها، وإن قامت أسماء الإشارة بهذه الوظيفة فإنها تصبح في جراء ذلك مؤشرات.

ومن ثم يتضح أن المؤشرات لا يمكن أن تقوم على العلامات الطبيعية فحسب، بل تتضافر معها العلامات العرفية، لأن أسماء الإشارة والأسماء الموصولة تعد علامات عرفية وليست طبيعية.

وعليه يتضح أن بيرس قد حاول أن يشمل جميع المؤشرات اللغوية والمادية في نظام واحد.

III–الرمز "Symbol":

والرمز عند بيرس هو: "علامة تحيل إلى الشيء الذي تشير إليه بفضل قانون- غالباً ما- يعتمد على التداعي بين أفكاره عامة، ويحدد ترجمة الرمز بالرجوع إلى هذا الشيء. والعلامة في هذه الحالة تكون عرفية محضة، لأن الرمز يربط بين الدال والمدلول الإيحائي، والمدلول الإيحائي يكون علامة عرفية أكثر منها طبيعية. ومثال ذلك الميزان الذي يرمز للعدل.

2–فرديناند دي سوسير Ferdinand de Saussure:

ثم جاءت محاولات عالم اللغة السويسري فرديناند دي سوسير 1857-1914 ليعنى بالمستوى البرجماتي للسيميولوجيا Semiology أي بفاعلية العلامة وتوظيفها في الحياة العملية وفي عمليات الاتصال ونقل المعلومات. وذلك من خلال دعوته إلى علم السيميولوجيا فيقول: "اللغة هي نظام من العلامات الذي يعبّر عن الأفكار، ولذلك فهي مشابهة لنظام الكتابة الأبجدية للصم، وللطقوس والمذاهب الرمزية، ولصيغ المجاملة، وللإشارات العسكرية... الخ، ولكنها أهم من كل هذه الأنظمة لقد أصبح ممكناً تصور ذلك العلم الذي يدرس حياة العلامات داخل المجتمع، ولا بد أن يكون جزءاً من علم النفس الاجتماعي، ومن ثمّ من علم النفس العام، وسوف أسميه Semiology علم العلامات (في اليونانية semeion "علامة"، وعلم العلامات سوف يبين ما الذي يشكل العلامات، والقوانين التي تحكمها، ولأن العلم لم يظهر للوجود، فلا أحد يستطيع القول بماذا سيكون ولكن له حق الوجود. وعلم اللغة هو جزء فقط من العلم العام لعلم العلامات، وإن القوانين المكتشفة بواسطة علم العلامات (السيميولوجيا) سوف تكون ملائمة لعلم اللغة".

ومن هنا يتضح أن سوسير يرى أن علم اللغة جزء من علم العلامات (السيميائية) وأنها تُعنى بالتعبير عن الأفكار المختلفة، واستطاع أن يطور هذا العلم بنقله من الدراسات الفلسفية إلى الدراسات اللغوية ولاسيما علم اللغة. فإذا كان تشارلز ساندرز بيرس عُني بماهية العلامة من حيث درس مقوماتها وطبيعتها وارتباطها بالموجودات الأخرى التي تشبهها فإن سوسير عني بالعلاقة بين العلامة وعلم اللغة، وبفاعلية العلامة وتوظيفها في الدراسات اللغوية ويرى أن "الخصائص التي تميز السيميولوجية عن جميع المؤسسات الأخرى تظهر بوضوح في اللغة.. وأن مشكلة اللغة سيميولوجية بشكل رئيس، وأن كل التطورات استمدت أهميتها من تلك الحقيقة المهمة، وإذا كنا سنكتشف الطبيعة الحقيقية للغة فعلينا أن نعرف الجوانب المشتركة بينها وبين جميع الأنظمة السيميولوجية".

وتتمثل العلامة Sign عند سوسير في الدال Signifiant والمدلول Signified، وتقوم على أساسين: الأول: الطبيعة الاعتباطية Arbitrary بين الدال والمدلول أي: إن العلامة اللغوية عنده اعتباطية، والثاني: الطبيعة الطولية للدال أو الطبيعة الخطية للدال، ذلك "أن الدال يمثل امتداداً زمنياً، وهذا الامتداد محدد ببعد واحد، هو الخط الزمني، أي إن سوسير يقدم النموذج التزامني Synchronic الذي يرى اللغة في علاقاتها بالثقافة ونشاطاتها في لحظة.

كما تتسم العلامة عند دي سوسير أيضاً بأنها لا تبادلية حيناً، وتبادلية في حين آخر، فمن حيث كونها لا تبادلية يتضح من خلال عدم المقدرة على تغيير العلامة أو الدوال الذي اختارته اللغة، لأن اللغة ميراث جماعي- لو جاز لنا استخدام هذا التعبير- وهذا لا يعني أن الجماعة مرتبطة باللغة كما هي عليه. والحقيقة أن كل المجتمعات الإنسانية لا تعرف ولم تعرف أبداً اللغة، بل لم تعرفها من قبل إلا بمثابة نتاج موروث عن الأجيال السابقة ينبغي أن يؤخذ على ما هو عليه".

فالعلامة ليست تبادلية، لأن الذات الفردية أو حتى الجماعية، لا تستطيع تغييرها أو استبدالها لأنها ميراث لمراحل سابقة، وأن اللغة الأم التي استقرت رموزها الكتابية وعلاماتها في وعي الأجيال المتتابعة لا يمكن استبدالها أو إدخال تغيير عليها. أما من حيث كون العلامة تبادلية فإن ذلك يتضح في بعض التغييرات الصوتية التي تحدث في الدال، أو المعنوية التي تحدث في المدلول.

وهكذا نستطيع القول إن فرديناند دي سوسير استطاع أن يطور مفهوم "السيميولوجيا" وينقله من الإطار الفلسفي عند بيرس إلى الإطار اللغوي. وبذلك أصبح المفهوم قريباً من الدرس النقدي عند السيميائيين.

ثالثاً: علم اللسانيات الحاسوبي (المعلوماتي):[1]

يبحث هذا العلم في اللغة البشرية كأداة طيّعة لمعالجتها في الآلة، (الحاسبات الالكترونية= الكومبيوتر) تتألف مبادئ هذا العلم من اللسانيات العامة بجميع مستوياتها التحليلية: الصوتية والنحوية والدلالية، ومن علم الحاسبات الالكترونية (الكومبيوتر)، ومن علم الذكاء الاصطناعي، وعلم المنطق، ثم علم الرياضيات. إن كل هذه الفروع تتناسق وتتآلف لتشكل مبادئ علم اللسانيات الحاسوبي (المعلوماتي).

والواقع إن تمثيل المعرفة الإنسانية في الآلات التكنولوجية كالحاسبات الالكترونية، مرتبط ارتباطاً وثيقاً بتحليل اللغات الإنسانية وتركيبها، وخاصة في حقل علم التراكيب.

من هنا فإن تعريف علم اللسانيات الحاسوبي (المعلوماتي) يختلف من باحث إلى باحث آخر، ويعتمد ذلك على الحقل الذي يعمل به عالم اللسانيات ثم التجربة العلمية التي يخوضها. فبعض الباحثين يعرّف هذا العلم على أنه العمل اللغوي الذي يُعالج في الحاسبات الالكترونية (الكومبيوتر)، ويعرّفه بعض الباحثين الآخرين على أنه جزء من علم الذكاء الاصطناعي. وهكذا فإن علم اللسانيات الحاسوبي (المعلوماتي) طبقاً لوجهة هؤلاء الباحثين هو الاستعمال الدقيق للحاسب الالكتروني لإجراء بعض العمليات الرياضية فيه والتي تشبه العمليات المنطقية الرياضية التي يقوم بها الذهن الإنساني.

والواقع، يطرح هذا التعريف جانبين هامين في علم اللسانيات الحاسوبي (المعلوماتي) وهما: الجانب النظري، والجانب التطبيقي.

فالجانب النظري: لهذا العلم يبحث في الإطار النظري العميق الذي من خلاله يمكننا أن نفترض كيف يعمل الدماغ الالكتروني لحل المشكلات اللغوية كالترجمة الآلية من لغة إلى لغة أخرى.

---

(1) هذا البحث جزء من كتاب د.مازن الوعر بعنوان: قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث، 150.

أما الجانب التطبيقي: فإنه يبحث في العمليات الرياضية الخوارزمية (Algorethim) والتي هي عبارة عن مجموعة من القواعد المنظمة في طريقة معينة تنطلق من القواعد البسيطة إلى القواعد المعقدة ثم إلى القواعد التي هي أكثر تعقيداً.

إن الفكرة المهمة في الجانب التطبيقي هي أنه عندما يعمل الحاسب الالكتروني عملاً لغوياً ويركّبه، وهذا العمل اللغوي كان قد حققه الدماغ البشري، فإن علم اللسانيات الحاسوبي (المعلوماتي) عندها لا يمكن أن يعتبر جزءاً من علم الذكاء الاصطناعي.

والواقع إنّ الجانب التطبيقي للحاسب الالكتروني هو مسألة تقنية مرتبطة بمبدأ العرض والطلب التكنولوجي الاقتصادي المتعلّق بطلب بعض الشركات لنوعيات معينة من الحاسبات الالكترونية.

فمن هذه الوجهة التقنية فإن الجانب النظري لعلم اللسانيات الحاسوبي (المعلوماتي) سيكون أقل أهمية من الجانب التطبيقي. والواقع إن ما حصل تاريخياً (1950-1983) هو أن علم اللسانيات الحاسوبي (المعلوماتي) بحقوله العديدة (الحاسبات الالكترونية، الذكاء الاصطناعي، الترجمات الآلية، ثم تحليل الكلام وتركيبه) كان قد طُبق أولاً على المسائل الرياضية فقط وقد أدرك الباحثون فيما بعد بأن اللغة الطبيعية البشرية هي نظام رياضي اتصالي كأي نظام من الأنظمة (كالنظام العسكري، والنظام الاقتصادي... الخ) فإذا كانت اللغة نظاماً رياضياً فإنه يمكننا حلّ رموزها وفكّها بطريقة رياضية ثم إعادة تركيب هذه الرموز الصوتية والنحوية والدلالية. فمن خلال هذا التحليل والتركيب اللغوي توصّل الباحثون إلى أنه يمكننا أن نترجم أية لغة بشرية إلى لغة أخرى ترجمة آلية، ولاسيما القضايا العلمية منها ذلك لأن الترجمة من لغة إلى لغة أخرى هي في أساسها تحليل وتركيب للرموز اللغوية في اللغة المترجم منها واللغة المترجم إليها.

وقد توصّل الباحثون من خلال عملية تحليل الرموز اللغوية وتركيبها إلى تطوير حقل آخر يعرف بـ"حقل الإحصاء اللغوي" الذي يعالج المواد اللغوية في الحاسبات الالكترونية معالجة إحصائية. والواقع يتطلب هذا الحقل الإحصائي للغة من الباحث اللساني التمرين، والتجربة الإحصائية، ثم يتطلب النظرية الإحصائية الدقيقة لاستعمالها في عملية الإحصاء اللغوي، ويمكننا الاستشهاد على الإحصاء اللغوي بمثال من اللغة العربية. إنه يمكن للباحث اللساني أن يستقصي ما إذا كان ترتيب الكلمات في التركيب العربي هو (فعل+ فاعل+ مفعول به= جملة) ولكنه سيكتشف أن هناك نصوصاً لغوية عربية أخرى لا تتقيد بهذا الترتيب. إن ترتيبها من أجل إنتاج تركيب عربي هو (فاعل+ فعل+ مفعول به= جملة). من هنا فإنه ينبغي على الباحث أن يبيّن الدرجة المئوية للترتيب الأول، والترتيب الثاني من خلال استقصائه للنصوص اللغوية العربية وذلك قبل أن يبتَّ في أية نتيجة حول بنية التركيب العربي.

والواقع لقد بحث مؤتمر "اللسانيات التطبيقية العربية ومعالجة الإشارة والمعلومات" كل هذه القضايا اللسانية الآلية. إن الشيء المدهش في هذا المؤتمر هو أن مناقشته لهذه القضايا كانت منسّقة ومنظّمة بين علماء اللسانيات، وعلماء الهندسة والحاسبات الالكترونية. لقد أدرك المشاركون في هذا المؤتمر بأنه لا يمكن لعلم اللسانيات الحاسوبي (المعلوماتي) أن يكون علماً قائماً برأسه له هويته ومبادئه ومناهجه وتطبيقاته التكنولوجية إلا من خلال التعاون والتنسيق بين علماء اللسانيات وبين علماء الهندسة الالكترونية وبين علماء الحاسبات الالكترونية.

من هنا فإنني أعارض الفكرة التي طرحها البروفسور الفرنسي م.غروس عندما قال بأن علماء اللسانيات هم الآن في وضع ضعيف لا يمكّنهم من صياغة نظرية لسانية عالمية تُعالج معالجة آلية في الحاسبات الالكترونية وهذا بالطبع يختلف على حد رأي البروفسور

م.غروس عن الوضع القوي الذي يتمتع به علماء الآلة والحاسبات الالكترونية (الكومبيوتر) الذين استطاعوا صياغة النظريات العلمية الدقيقة والشاملة للحاسبات الالكترونية.

إنّ هذا الرأي الذي طرحه البروفسور م.غروس هو رأي مرفوض وذلك لأنه لا يمكن لأي عالم مختص بعلم من العلوم أن يدّعي بأنه في وضع سليم وقوي في بحوثه العلمية مادام منعزلاً عن بقية العلوم الأخرى، ومادام غير مطلّع على أهم التطورات التي ترافق الظواهر التي لها علاقة ببحثه من قريب أو بعيد. من هنا فإنه لا يمكن لعلماء الآلة والحاسبات الالكترونية المهتمين باللسانيات أن يكونوا في وضع سليم وقوي من الناحية العلمية وأن يكونوا متأكدين من صحة نتائجهم بوضعها وتطويرها علماء اللسانيات. إن هذا الاعتماد نابع من الحقيقة التي تقول: بأنه لكي نحصل على برمجة علمية لسانية في الحاسبات الالكترونية يمكن أن تكون حسنة وناجعة فإنه لا بد من التنسيق بين البحث اللساني وبين البحث الآلي (الالكتروني) فإذا قلبنا الآية فإننا نكون قد طبقنا المحزّ على التمام بمعنى أنه لا يمكن لعلماء اللسانيات أن يصوغوا نظرية لسانية بشرية دقيقة وسليمة وشاملة إلا إذا استفادوا من البحوث التكنولوجية في الهندسة الالكترونية والرياضيات الحسابية والحاسبات الالكترونية التي يضعها ويطورها علماء الآلة وعلماء الهندسة الالكترونية. إن الفكرة الرئيسية التي خرج بها المشاركون في المؤتمر والتي كان قد أكّدها البروفسور الأمريكي آلن تكر رئيس قسم الحاسبات الالكترونية في جامعة جورج تاون[1] هي التعاون والتنسيق بين علماء اللسانيات بجميع اختصاصاتهم النحوية والدلالية

---

(1) لمعرفة ما قاله البروفسور آلن تكر (Alen Tuker) في هذا الشأن، راجع البحث الذي قدّمه صاحب هذه السطور (بالانكليزية) إلى مؤتمر "اللسانيات التطبيقية العربية، ومعالجة الإشارة والمعلومات" الذي عقد في الرباط- المغرب (26 أيلول- 5 تشرين الأول 1983) تحت عنوان:=

والصوتية والمعجمية والصرفية، وبين علماء الحاسبات الالكترونية (الكومبيوتر) بجميع اختصاصاتهم الهندسة الالكترونية والذكائية الاصطناعية ثم الترجمات الآلية.

مشكل الاتصال والتبليغ والبيان:

لقد جاء في النشرة التي وزّعتها المدرسة العربية للعلوم والتكنولوجيا التابعة لمعهد الدراسات والبحوث العلمية (سورية) بأن محاضرات مؤتمر "اللسانيات التطبيقية العربية ومعالجة الإشارة والمعلومات" ستكون باللغتين الانكليزية والفرنسية، وإنّه لن يكون هناك ترجمة فورية إلى اللغة العربية وذلك للتكاليف الباهظة التي تستلزمها عملية كهذه.

والواقع إن وسيلة الاتصال والتبليغ باللغتين الانكليزية والفرنسية سبَّبت مشكلات تقنية ذلك لأنّ بعض المشاركين في المؤتمر لا يعرف إلا لغة واحدة كالعربية أو الانكليزية أو الفرنسية. والحقيقة هي أن أغلب المشاركين يعرفون العربية لأنها اللغة التي ينطقون بها، ثم إنهم يتفاوتون بمعرفة الانكليزية أو الفرنسية بل إن بعضهم لا يعرف اللغتين الأخيرتين على الإطلاق. أضف إلى ذلك أن موضوع المؤتمر كلّه دار حول اللغة العربية ومعالجتها في الحاسبات الالكترونية فكيف يمكننا أن نتكلم عن لغة بغيرها من اللغات البشرية ولاسيما

- Al-Waer, Mazen (1983) "on Some Basic Issues of Computational Linguistics" Goergetonwn university, Washingto, D.C.U.S.A

هذا البحث عبارة عن ندوة ناقشت بعض القضايا الأساسية في علم اللسانيات الحاسوبي (المعلوماتي). اشترك في هذه الندوة البروفسور الأمريكي آلن تكر رئيس قسم علم الحاسبات الالكترونية بجامعة جورج تاون، والبروفسور الروسي الأصل مايكل زارتشناك أستاذ علم الدلالة وبرمجتها في الحاسبات الالكترونية بجامعة جورج تاون، والبروفسور جان هيرمنسون رئيس مركز البرمجة اللغوية الآلية بجامعة جورج تاون، ثم صاحب هذه السطور.

إذا كانت هذه اللغة (العربية) لغة عالمية وحضارية!! مع أن لهذا السبب الأخير مسوّغاته العلمية التكنولوجية، وهو عجز متكلمي العربية عن تطويع العربية لتصبح لغة علمية تكنولوجية في العصر الحديث كما فعل العرب القدامى في العصر القديم. والوقع، لا تقتصر معاناة الاتصال والتبليغ اللساني العربي على هذا المؤتمر فحسب بل إنها تشمل علم اللسانيات كعلم قائم برأسه في الثقافة العربية. ذلك لأن هذا العلم علم جديد وافد من الغرب له مبادئه ومصطلحاته ومناهجه. فإذا كان لهذا العلم مصطلحاته العلمية في اللغات الأوربية والأمريكية فإنه لايزال يتلمس الأساسيات اللسانية في الوطن العربي.

وبكلمة أخرى إنه مايزال يبحث عن هوية لغوية عربية في الثقافة العربية، ولكن بالرغم من صعوبة البداية لوضع مصطلحات عربية لهذا العلم فإنه يبقى صحيحاً أنه ينبغي علينا نحن العرب أن نتكلم عن هذا العلم بالعربية، وأن نضع له مصطلحات عربية لسانية (حتى لو لم تكن دقيقة مئة بالمئة) فإذا استطعنا أن نضع إطاراً عربياً واقعياً لهذا العلم فإن الخطوة الثانية هي أن نشذب ونهذب ونطوّر هذا الإطار التعريبي، والحجة في ذلك هي أن إطاراً عربياً لسانياً واقعياً حتى إذا كان هلامي الشكل هو حتمية علمية لا بد منها في الثقافة العربية. نحن نريد لهذا الإطار العربي الهلامي البناء أن يكون في الثقافة العربية المعاصرة، وبعدها تأتي عملية تطوير هذا البناء العربي ليصبح قوياً ومتماسكاً.

فإذا كنت أدعو لأن تكون العربية وسيلة اتصال وتبليغ في علم اللسانيات فإنني في الوقت نفسه أدعو لأن تكون الانكليزية لغة عالمية ثانية في عملية الاتصال والتبليغ وذلك لعلميتها وعالميتها وتكنولوجيتها المعاصرة، ثم لجعل العربية في الوقت نفسه تفتح نافذتها لتستنشق الهواء العلمي الطلق في تكنولوجيا اللسانيات الغربية، ولكن على ألا يكون هذا الهواء ريحاً تقتلع الجذور العربية الأصيلة.

فإذا كان ذلك كذلك فإن عملية الإفادة ستكون ناجعة، ثم إن عملية التطوير اللساني ستكون في الطريق السليم والصحيح.

إن حل أزمة الاتصال والتبليغ يقع على عاتق المهندسين الالكترونيين العرب والمختصين في الحاسبات الالكترونية، وعلى عاتق اللسانيين العرب بمختلف فروعهم، إنه ينبغي على هؤلاء جميعاً أن يشكلوا فريقاً علمياً كاملاً ليتفقوا على صيغة اتصالية عربية موحدة تخفّف من عجز العربية (عجزها من عجز متكلميها) عن نقل تقنيات التكنولوجيا الغربية إلى العالم العربي. ولا شك في أنّ التعاون والتنسيق بين المنظمات العربية في مختلف أنحاء العالم العربي هو شرط أساسي للتوصل إلى هذه الصيغة الاتصالية العربية لعلم اللسانيات.

مشكل إدخال العربية في الحاسبات الالكترونية:

لا يمكن للمرء أن يتخيل الاستفادات النظرية والتطبيقية التي يمكننا الحصول عليها من علم اللسانيات الحاسوبي (المعلوماتي). فعندما يدرس اللسانيون المواد اللغوية دون استخدام الحاسوب الالكتروني فإنّه لا بد من استخدام منهج لساني معين، مثل المنهج اللساني التوليدي والتحويلي أو المنهج اللساني الوظيفي البراغماتي. ولكن مهما كان المنهج اللساني المستخدم والمطبق على المواد اللغوية فإنّه لا بد من تخزينه في الذاكرة الإنسانية ذات الصفات المحدودة والقصيرة. والواقع هناك صعوبات كثيرة ناجمة عن استخدام التخزين في الذاكرة البشرية، من هذه الصعوبات أنه إذا كنا نحلّل لغة أجنبية ما، فإننا سنواجه صعوبة في بناء المفردات، أو إيجاد المعاني المحددة لكلمات معينة، أو تسليط الأبنية والصيغ النحوية للغتنا القومية على الأبنية والصيغ النحوية للغة الأجنبية المحلّلة. إن هذه الصعوبات نفسها ستتبين عندما نعمل على لغتنا الناطقين بها، ذلك لأنه لا يمكننا أن نتذكر كل هذه الظواهر المبينة في لغتنا القومية لأن الذاكرة الإنسانية تعمل على أساس

من النظام القصير، وليس على أساس من النظام الثابت والطويل جداً. وهذا يختلف عن ذاكرة الحاسب الالكتروني المركبة على أساس من النظام الطويل الأمد وهكذا فإن أعمالاً كثيرة مملّة ومضنية للذاكرة الإنسانية يمكن أن تقوم بها ذاكرة الحاسب الالكتروني كتصنيف المفردات واكتشافها وملاءمة الأبنية والصيغ النحوية في لغتنا القومية مع الأبنية والصيغ النحوية في اللغة الأجنبية. وهكذا فإن استخدام الحاسب الالكتروني في مثل هذه الأعمال سيزيد من سرعة العمل العلمي ثم سيحقق المنهجية والموضوعية في الأعمال اللغوية. من هنا فإنه لا داعي للباحث اللساني عند دراسته للغة أجنبية ومقارنتها مع لغته الأم لأن يقول: "إنني أشعر، أو أحدس، أو أتوقع". فليس هناك شعور أو حدس أو توقّع عندما نعرض المواد على الحاسب الالكتروني ذلك لأن ما يعطيه هذا الحاسب من نتائج ستكون علمية موضوعية ليس فيها أي شك أو ريبة، وليست خاضعة للحدس والشعور والتخمين.

وهكذا فإنه باستخدامنا للحاسبات الالكترونية فإنه يمكن أن نضبط عالمية الظواهر اللغوية بسرعة علمية تفوق كلّ سرعة إنسانية أساسها الذاكرة الإنسانية.

والواقع إن عالمية الظواهر اللغوية تقودنا للسؤال التالي:

هل عالمية اللغة شيء جوهري في الوجود الإنساني، أم أنها شيء بيولوجي مشروط باختلاف الجنس البشري؟

الواقع لقد ساعد علم اللسانيات الحاسوبي (المعلوماتي) في الإجابة عن هذا السؤال وذلك من خلال تطوير حقول لسانية عديدة معاصرة. فالعمل اللساني الذي يقوم به عالم اللسانيات الأمريكي نعوم تشومسكي في النحو التوليدي والتحويلي قد تأثر بأنظمة الحاسبات الالكترونية اللغوية تماماً، مثبتاً بأن اللغة هي مكنة جوهرية مولدة تختص بالفصائل الإنسانية وحدها. هذه الفاعلية اللغوية في الدماغ البشري هي واحدة عند كل

الكائنات البشرية، لقد حاول تشومسكي أن يصوغ اللغة صياغة رياضية، وأن يُلحق القواعد المحددة لهذه اللغة بإطار توليدي حسابي مبرمج، وذلك من أجل معرفة هذه الفاعلية اللغوية وعلائقها المجردة في الدماغ البشري. إن الجهود التي يبذلها تشومسكي لفصل علم النحو (التراكيب) عن علم الدلالة (المعنى) في نظريته الكلاسيكية لعام (1957)، ثم الجهود المبذولة لدمج ذينك العلمين ولاسيما في نظريته الجديدة "نظرية العامل والربط الإحالي" لعام (1981) إنما كانت ناتجة عن صياغة اللغة صياغة رياضية وذلك لبرمجتها في الحاسبات الالكترونية.

فإذا تحدثنا عن الترجمات الآلية فإنه يمكننا القول بأن علم اللسانيات الحاسوبي (المعلوماتي) يسهم الكثير لجعل هذا الحقل مثمراً ونافعاً. فكل مثال لغوي نقدمه إلى الحاسب الآلي من أجل ترجمته من لغة إلى لغة أخرى، فإنه سيكشف لنا أفكاراً جديدة من حيث كيفية استعمال اللغات البشرية وحركيتها في الوقت نفسه. وهذا بالطبع سيقدم لنا حقائق جديدة عن عمل اللغات البشرية واستعمالاتها المختلفة، وسيجرّنا لمعرفة فيما إذا كان يمكننا أن نصوغ قواعد كلية لهذه المواد اللغوية الجديدة واستعمالاتها، أم أن هذه المواد اللغوية واستعمالاتها تعتبر شاذة من حيث القانون اللغوي الذي تعمل من خلاله لغة من اللغات البشرية؟ هل هذه المواد اللغوية واستعمالاتها عبارة عن تراكيب اصطلاحية لا تخضع لقواعد معينة؟ كيف يمكن للحاسب الالكتروني مثلاً أن يتعامل مع تراكيب اصطلاحية عربية مثل:

(1) آ. وعند جهينة الخبر اليقين

ب. *الخبر اليقين عند جهينة

(2) آ. اليوم خمر وغداً أمر

ب. *خمر اليوم وأمر غداً

(3) آ. وعلى نفسها جنت براقش

ب. *جنت براقش على نفسها

(4) آ. يداك أوكتا وفوك نفخ

ب. *فوك نفخ ويداك أوكتا

فإذا كانت القاعدة العربية مطبقة تماماً على الأمثلة (1 ب) و(2 ب) و(3 ب) و(4 ب) فلماذا إذاً هناك خطأ في هذه التراكيب المذكورة؟ ولماذا يمكن لمخالفة القاعدة النحوية العربية أن تنتج لنا تراكيب صحيحة في (1 آ) و(2 آ) و(3 آ) و(4 آ)؟

إن هذه الاكتشافات لبنية التعابير الاصطلاحية جعلت الباحثين اللسانيين العاملين على الحاسبات الالكترونية يفكرون بهذه المسائل النحوية والدلالية والمصطلحية، وأصبحوا يضعون برامج لغوية تتفق مع هذه الحقائق المذكورة. وهناك إسهام آخر لعلم اللسانيات الحاسوبي (المعلوماتي) وهو أنه استطاع أن يمكّننا من تحليل الصوت وتركيبه، وتحليل الكلام وتركيبه، وذلك تحليلاً وتركيباً علمياً وموضوعياً لا يخضع للأحاسيس السمعية والتذوقية والحدسية. وبعبارة مختصرة إن الحاسب الالكتروني يدفع الباحث اللساني لأن يكون دقيقاً وموضوعياً وسريعاً في بحوثه اللغوية.

من هنا فإنه ينبغي على عالم اللسانيات الحاسوبي (المعلوماتي) أن يكون حذراً وواعياً عندما يحلّل الأصوات والكلم ويركبها من جديد. فإذا كان عليه أن يستخدم الحاسب الالكتروني فإن عليه أن يعرف الصيغ الرياضية الحديثة للبنية اللغوية. والواقع ينتظر علماء اللسانيات الشيء الكثير من علم اللسانيات الحاسوبي (المعلوماتي) ولاسيما في حقل علم الدلالة (المعنى)، فإذا كان على الدلالة (المعنى) أن تصف العلاقة القائمة بين الكلمات والعالم الخارجي الذي تمثله. فإنّ الحاسب الالكتروني يجب أن يُصمَّم وفق هذا الشيء، أي أن يكون عنده بعض المعارف حول هذا العالم الخارجي، وهكذا فإن

تمثيل المعرفة الخارجية في الحاسب الالكتروني سيطرح مشكلة أساسية في علم اللسانيات الحاسوبي (المعلوماتي). كيف يمكن تمثيل العالم الخارجي الفيزيائي في الحاسب الالكتروني؟

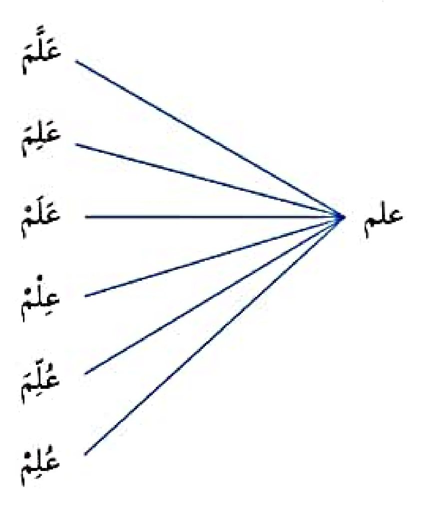
والواقع إن خير دليل على الإسهامات التي يُقدّمها علم اللسانيات الحاسوبي (المعلوماتي) لمعرفة اللغات البشرية هو الدراسة التي كان قد قدّمها الدكتور محمد مراياتي بالتعاون مع زملائه العاملين في مركز الدراسات والبحوث العلمية في سورية تلك الدراسة التي تدور حول إحصائية الجذور العربية.

فقد درس الدكتور مراياتي الجذور العربية المنتشرة في المعاجم والقواميس العربية القديمة دراسة حديثة معتمداً بذلك على الحاسبات الالكترونية التي تساعد كثيراً في ضبط العملية الإحصائية والسرعة العلمية فيها. وقد دفع هذا الشيء الدكتور مراياتي لأن يحصي النسب المئوية للجذور الثنائية والثلاثية والرباعية والخماسية في اللغة العربية. وقد دفعه أيضاً لأن يحصي الدرجات المئوية التي يمكن فيها للأصوات العربية أن تندمج مع بعضها بعضاً، أو تنفصل عن بعضها بعضاً، ثم القوانين الصوتية التي تحكم هذا الدمج والانفصال.

والواقع إن هذه الدراسات الإحصائية لجذور الكلمات العربية مهمة بحيث يمكن استخدام نتائجها في الترجمات الآلية من اللغة العربية إلى اللغة الأجنبية الأخرى أو بالعكس ولاسيما من حيث مقابلة المركبات الصوتية العربية مع المركبات الصوتية الأجنبية ومن حيث التحليل والتركيب. وقد دعا الدكتور مراياتي هذا الإجراء تنافر الأصوات العربية وانسجامها، وإمكانية اكتشاف مثل هذا التنافر والانسجام مبرمجاً في الحاسبات الالكترونية.

والواقع هناك باحث آخر يستحق الذكر أيضاً في مجال نقل علم اللسانيات الحاسوبي (المعلوماتي) إلى اللغة العربية نظرياً وتطبيقياً هو العالم العربي أحمد الأخضر غزال

مدير معهد الدراسات والأبحاث للتعريب (المغرب). لقد حاول هذا العالم وضع نموذج لساني عربي يعمل على الحاسبات الاكترونية ذات النظامين الألف بائي اللاتيني والعربي وقد أسمى هذا النموذج اللساني الآلي "العربية المعيارية المشكولة- الشفرة العربية" (عمم-شع) لقد حاول العالم أحمد الأخضر غزال شرح مبادئ هذا النظام متطرقاً إلى التطور التاريخي للخط والكتابة العربية وكيفية تطويع الرسم العربي لتكنولوجية الحاسبات الالكترونية المعاصرة، وقد طرح مثالاً على ذلك كلمة (علم) وحاول أن يضع لها كل الرسوم التي تأتيها من فوق وتحت ومحاولة إيجاد المقابل الآلي لها في الحاسبات الالكترونية. وتُبيّن صعوبة عمل كهذا من خلال هذه الكلمة العربية:



وهناك مثال آخر على تلك الصعوبة هو المشكلة المتعلقة برسم الحرف العربي في الحاسب الالكتروني ذلك الحرف الذي يُكتب في أشكال متعددة مثل (س- سـ- ـس- ـسـ).

رابعاً: نماذج تطبيقية ونظريّة لسانيّة مختارة ومتعدّدة:

أولاً: دراسة شخصية "الأفعى" في "رسالة الغفران" دراسة سيميائية:

ظهرت "الحية" في رسالة الغفران في مواضع عدّة متفرقة. فذكرها بداية ليربط المعري بين فاتحة الرسالة وموضوعها بطريقة دقيقة، فإذا كان محور الرسالة التهكم والطعن على ابن القارح فإن فاتحة الرسالة تدعم الغرض منذ البداية. فالرسالة ترتسم وفق مبدأ الالتواء الذي تدل عليه مشية الأفعى، وذلك في قوله:

"قد عَلِم الجبرُ الذي نُسِب إليه جَبرئيل، وهو في كلّ الخيراتِ سبيلٌ، أن في مسكني حَماطةً ما كانت قطُّ فانِيَةً، ولا الناكزةُ بها غانيةً، تُثمرُ من مودّةِ مولايَ الشيخِ الجليلِ- كَبَتَ الله عدُوَّه، وأدامَ رَواحَهُ إلى الفَضْلِ وغُدُوّه- ما لو حملتْهُ العاليةُ من الشجر لدَنَتْ إلى الأرضِ غصونُها وأُذيلَ من تلك الثمرة مَصونُها"[(1)].

فخطاب المعري ذو مستويين سرديين:

المستوى الأول: مستوى إظهار المودة لابن القارح.

المستوى الثاني: مستوى التهكم على ابن القارح.

إن خطابه ينطوي على تهكم واضح من ابن القارح، فهو عندما يقدم خطابه يريد أن يقول: إن حب المعري لابن القارح هو حب راسخ كالشجرة إلا أن هذه الشجرة يابسة لا تطعم ولا تغني من جوع، ولكنها تثمر محبة ومودة لابن القارح يفوق الخيال، فاختار الأفعى ليعبّر بها عن شح هذه الشجرة واختار لفظ الناكزة وهي "ضرب من الحيات يَنْكُزُ بأنفه ولا يَعَضّ بفيه ولا يُعرف رأسه من ذنبه لدقة رأْسه"[(2)] ليدل على أن

---

(1) رسالة الغفران، 129.

(2) لسان العرب، ابن منظور، (نكز) .

الرسالة تحوي الكثير من السم المخفي. فالناكزة لا تعض بفيها وإنما تنكز بأنفها، وهي إلى جانب ذلك لا يعرف رأسها من ذنبها، وهذا يدل على أن التهكم لن يكون واضحاً في الخطاب، ويحتاج إلى مزيد من الفهم والقراءة فمن "وراء الدلالة الحقيقية تكتسب العلامة المسرحية حتماً معاني ثانية لدى الحضور الذي يردها بدوره إلى القيم الاجتماعية والأخلاقية والإيدلوجية المعمول بها داخل الجماعة التي ينتمي إليها المؤدون والمشاهدون"(1) والأفعى هي من أكثر العلامات وضوحاً عند المتلقي في دلالتها على وجود الالتواء في النص فقد وردت في الثقافة الإسلامية على هذا النحو ولاسيما في قصة إغواء آدم في الجنة بوساطة الأفعى.

أما قولُه: "ثمّ يَضربُ سائراً في الفِردَوسِ فإذا هو برَوضةٍ مؤنقةٍ، وإذا هو بحيَّاتٍ يلعبن ويتماقَلْن، يتخافَفْن ويتثاقلْن، فيقول: لا إله إلاّ الله! وما تصنع حيّةٌ في الجنّة؟ فيُنْطِقُها الله، جلّتْ عَظَمتُه، بعدَ ما ألهَمَها المعرفةَ بهاجِسِ الخَلَد فتقول: أما سمعت في عُمرك بذات الصَّفا، الوافيةِ لصاحبٍ ما وَفَى؟ كانت تنزِلُ بوادٍ خصيب، ما زَمَنُها في العيشةِ بقَصيب، وكانت تصنعُ إليه الجميلَ في وِرْدِ الظاهرةِ والغِبِّ، وليس مَنْ كفر للمؤمن بسِبٍّ فلمّا ثمّر بودِّها مالَه، وأمّل أن يجتذِبَ آمالَه، ذُكّرَ عِندها ثارَه، وأرادَ أن يَتفِر آثارَه، وأكبَّ على فاسٍ مُعْمَلَةٍ، يَحُدُّ غُرابَها للآمِلَة، ووقَف للساعِيَةِ على صَخْرةٍ، وهمَّ أن ينتقمَ منها بأخَرَةٍ، وكان أخوهُ ممَّن قَتَلَتْه، جاهرَتْه في الحادثةِ أو قيل خَتَلَتْه، فضرَبَها ضَرْبةً، وأهونْ بالمقر شَرْبَةً، إذا الرَّجُل أحسَّ التَّلفَ، وفقَد من الأنيس الخَلَف! فلمّا وقِيت ضربةَ فأسِه، والحِقدُ يُمْسِك بأنْفاسِه، ندِم على ما صنع أشدَّ النّدم، ومَن له في الجِدّةِ بالعدم؟ فقال للحيّةِ مخادعاً، ولم يكُن بما كتَم صادعاً: هل لك أن نكون خِلَّين، ونحفظ العهدَ إلّين؟ ودعاها بالسفَهِ إلى حِلْفٍ، وقد سُقيَ من الغدرِ بخِلْف. فقالت: لا

(1) سيمياء المسرح والدراما، كير إيلام، ترجمة: رئيف كريم، 18.

أفعلُ وإن طال الدَّهرُ، وكم قُصِم بالغِيَر ظهرُ! إنّي أجدُك فاجراً مسحوراً، لم تألُ في خُلَّتِك حُورا؛ تأبى لي صَكَّةٌ فوقَ الراسِ، مارستُها أبأسَ مِراس، ويَمْنَعُك من أرَبِك قبرٌ محفور، والأعمالُ الصّالحةُ لها وفور"[1].

فقد قصد المعري الكشف عن ملامح الإنسان من خلال توظيف هذه الحكاية الخرافية[2] في رسالته، واستخدم لذلك عدّة وسائل، إذ قام بانعطاف في المسار السردي، فابتدأ بالسرد واصفاً الفضاء المكاني عبر تقديم علامات أيقونية Iconic واضحة، لأن الارتباط بين الفضاء الدرامي والحدث وسلوك الشخصيات "يعطي للخطاب الدرامي تماسكه[3] النصي وتماسكه الدلالي، ويقرر الاتجاه الذي سيأخذه الحوار لتشييد هذا الخطاب"[4]، ثم جعل الشخصية "الأفعى" راوياً، فتحول ابن القارح من مشارك في الحوار إلى مستمع وأعطي الدور هنا للأفعى لتسرد قصتها، فعاد هنا الخطاب للسرد إلا أن السرد انتقل من ابن القارح إلى الأفعى بوساطة الحوار، وهذا جعل الخطاب أكثر حركة وجذباً للمتلقي، فكانت الحية "حاملة للأحاديث والتحولات في السرد"[5]، وكان المسار

---

(1) رسالة الغفران، 364-365، والحور: النقص، انظر لسان العرب (حور) . والغرب: ورد يوم وظمء يوم آخر، انظر لسان العرب (غبب) . وقصيب: جديب، وأقْصَب الراعي إذا عافت إبلُه الماءَ، انظر لسان العرب (قصب) .

(2) الحكاية الخرافية Tale: حكاية سردية قصيرة تنتمي صراحة إلى عالم الوهم من خلال اللجوء إلى الشخصيات الخيالية، والقبول بما يخالف الطبيعة وتصوير العالم غير الواقعي، والتقييد بالتصورات الموروثة. انظر معجم مصطلحات نقد الرواية، لطيف زيتوني، 78.

(3) التماسك Coherence: هو تماسك مكونات النص داخل وحدة منسجمة ولهذا التماسك شروط تنتمي إلى عوامل متعددة، عملية ولغوية ومنطقية دلالية. انظر معجم مصطلحات نقد الرواية، لطيف زيتوني، 63.

(4) الفضاء المسرحي، أكرم اليوسف، 74.

(5) شعرية المحكي، رولان بارت وفيليب هامون وآخرون، ترجمة: غسان السيد، دمشق، 2001، 151.

السردي لمتن القصة الافتتاحية على الشكل الآتي:

1- اضطراب:

- العيش بصفاء
- رغبة[1]

2- تحول:

- محاولة الرجل قتل الحية.
- نجاة الحية من القتل.
- ندم الرجل على صنعه.

3- حل: الافتراق بينهما.

أما المسار السردي لرسالة الغفران فكان على الشكل الآتي:

1- اضطراب: إظهار المودة والمحبة للمعري.

2- تحول: الرد على رسالة ابن القارح.

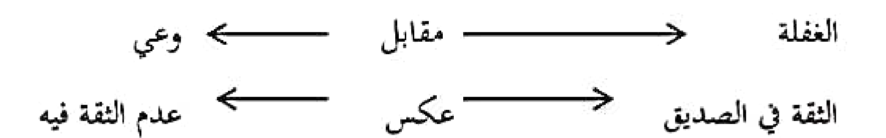
3- حل: لم يذكره المعري.

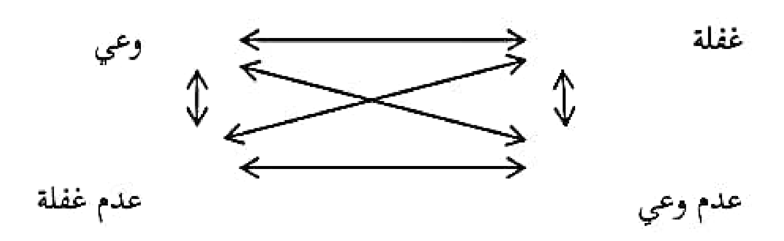
إن المعري أراد من المتلقي أن يدرك النهاية من خلال هذه القصة فالصداقة التي يرجوها ابن القارح من المعري غير ثابتة كونها لم تقم على أسس ثابتة.

فقامت كل من القصة الأساسية (الرحلة الخيالية) والقصة الثانوية على مقولتين دلاليتين هما:

---

(1) موضوع الرغبة: يشكل موضوع الرغبة أحد العوامل الستة الرئيسية في البنية السردية العميقة عند غريماس Greimas وهو يطلق على ما يسعى البطل للحصول عليه من خلال دوره: الحبيبة، الكنز، السلطة، الحرية، العدالة. انظر معجم مصطلحات نقد الرواية، لطيف زيتوني، 161.





يؤكد المعري هنا استناداً إلى المربع السيميائي Semiotic Table[1] السابق على أن لا صداقة حقيقية في الدنيا، وأن ادعاء ابن القارح محبة المعري ادعاءٌ غير صحيح.

واختار المعري الأفعى كونها تحمل دلالات متناقضة فيما بينهما "وما دام النص وسيلة للتواصل فلا تواصل دون اختلاف والاختلاف لا يعني التناقض وإنما يعني الحضور."[2] وهذا ما كان المعري يسعى إليه، فهو فيلسوف يؤمن أنه لا يمكننا إيجاد معنى

---

(1) المربع السيميائي: صياغة منطقية قائمة على نمذجة العلاقات الأولية للدلالة القاعدية التي تتلخص في مقولات: التناقض والتقابل والتلازم، فهو نموذج توليدي، ينظم الدلالة ويكشف عن آلية إنتاجها عبر ما يسمى بالتركيب الأساسي للمعنى، وهو أداة منهجية تسمح برصد انبثاق المعنى منذ حالاته الأولية، أو شبه الخام وحتى حالاته التركيبية المختلفة أو في الدلالة التأسيسية في مختلف التجليات: الصيغة والفاعلية والوظائفية والخلافية والفضائية. انظر معجم السيميائيات، فيصل الأحمر، الدار العربية ناشرون، بيروت، 230.

(2) السيمياء والنص الأدبي، الملتقى الوطني، جامعة محمد خيضر بسكرة، منشورات الجامعة، 7-8 نوفمبر، 2000، 134.

عام في العالم إلا بعرض فئات مختلفة من الناس. فصورة الأفعى في الرسالة أضحت رمزاً متعدد الدلالات اتخذها المعري بؤرة لإشعاعات إيحائية لا تحد، إذ ليس من المقصود حينما وظف هذا الرمز الحديث عن الحية في رحلته الخيالية وإنما أراد أن يخلق مجتمعاً يحوي جميع الطبقات فحملّها صفات عدّة:

1- صفات عضوية: جائعة، متنقلة، مقتولة.
2- صفات إيجابية: عالمة، وفية، مثيرة، جميلة.
3- صفات سلبية: مبغضة، سامة، فتاكة.

من هذا نجد أن الصفات الإيجابية هي الشائعة في الرسالة، وكان يعبّر عنها المعري بلفظ "الحية" وربما لأن هذا اللفظ مأخوذ من لفظ الحياة، مما يدل على تعلّق أبي العلاء بالدنيا، وحبه لها، وما مظاهر كرهه للدنيا إلا لشدة تعلقه بها، وعدم حصوله منها على ما يريد. ومما يؤكد قولنا أن المعري عندما ذكر قصة الأفعى مع ابن القارح لم يذكر إغراءاتها بشكل منطقي فذكر الإقامة أولاً ثم ترشف الرضاب، ثم الكلام مع المحبوبة الذي ينتج منه شم النَّفَس، ثم دنو الوسادة، ثم اللذة بشكل عام، ثم ختمها بالإقامة الدائمة. إن هذه الخطوات تشبه إلى حد ما الحياة الدنيا التي لا تسير دائماً بشكل منطقي، فهي متقلبة، وتبدأ بإقامة قليلة في الدنيا، ثم الإقامة الدائمة في الآخرة.

وعليه، نستطيع القول: إن الحية خدمت الخطاب كما أراده أبو العلاء، فهي ابن القارح الذي لا يقصّر في أي شيء لبلوغ غاياته، لكنه رغم ذلك لا يستطيع كسب محبة أبي العلاء؛ وهي بما تشتمل عليه من صفات ورموز ومسائل ذكرت سابقاً خطابٌ يحوي كثيراً من الالتواء والسم؛ وهي أبو العلاء الذي يحمل الصدق إلا أنه لا يجد في هذه الدنيا من يستحقه فهو القائل: "والكذبُ غالبٌ ظاهر، والصدقُ خفيٌّ متضائل، فإنّا لله

وإنا إليه راجعون"[1]. فأبو العلاء في توظيفه رمز الأفعى في النص، وضع نصفه في منطقة بينية حتى يفلت من تأويل وحيد وقراءة تعسفية. فالغرابة التي طبعت نصه جعلت العلامات تتحرك به دون أن تكون محددة الهوية.[2]

ثانياً: دراسة تطبيقية في اللسانيات المعاصرة:[3]

إشكالية ترجمة معنى "ز ي ن" في القرآن الكريم- دراسة تقابلية في الدلالة والتركيب:

الزينة لغة واصطلاحاً:

الزينة في اللغة:

اسم جامع لكل شيء يتزين به.[4] قال أبو علي: الزَّين المصدر، والزينة- الاسم- لما يزان به الشيء.[5] وابن دريد: الزُّونة كالزينة في بعض اللغات. قال أبو علي: تزينت وازينت مقصورة عن ازْيَانَّت.[6]

والزِّينة بالكسر ما يتزين[7] به الإنسان من لبس وحلى وأشباه ذلك.[8] والزينة:

---

(1) رسالة الغفران، 450.

(2) انظر الأنظمة السيمائية، دراسة في السرد العربي القديم، هيثم سرحان، دار الكتب الجديد المتحدة، 2008، 259.

(3) مقتطفات من البحث المنشور في صحيفة الألسن، العدد 20، 2004، جامعة عين شمس، كلية الألسن، من صفحة 335 إلى 433.

(4) اللسان 13/201-202 مادة (ز ي ن).

(5) الكشاف للزمخشري 4/34، إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر 2/407-408.

(6) المخصص: ابن سيده (أبو الحسن علي)، ص375.

(7) القاموس المحيط، الفيروزآبادي (ز ي ن).

(8) اللسان (ز ي ن).

العيد أو يوم كسر الخليج بمصر، ودار الزينة عين قرب عدن، وتزينت الأرض بالنبات أي حسنت وبهجت، وازينت وازدانت[1]. والزينة اسم جامع لكل شيء يتزين به.[2]

وفي الاصطلاح الفقهي: الزينة الحقيقية ما لا يشين الإنسان في شيء من أحواله، لا في الدنيا ولا في الآخرة، فأما ما يزينه في حالة دون حالة فهو وجه شَيْن، والزينة بالقول المجمل ثلاث:

1- زينة نفسية كالعلم والاعتقادات الحسنة.

2- زينة بدنية كالقوة وطول القامة.

3- زينة خارجية كالمال والجاه.[3]

ولم تحفل معاجمنا العربية بكل السياقات التي تمد الدارس أو المترجم بالبدائل الدقيقة وسوف نعرض لكل آية والترجمات الثلاث لها والوقوف على المعادل الترجمي ثم محاولة إعادة بناء ما يحيط بالسياق اللغوي من قرائن لغوية والمصاحبة اللغوية، ثم تحديد عناصر سياق الحال في ضوء ما ورد في كتب التفسير للخروج بمعنى سياقي دقيق وما يحويه من معانٍ فرعية خاصة باللغتين.

تحليل الأنماط:

س ل [1.A يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ][1].

---

(1) اللسان "زين".

(2) السابق نفسه.

(3) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، للراغب الأصفهاني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، تحقيق ندى مرعشلي، وانظر للمؤلف نفسه: المفردات في غريب القرآن تحقيق: مركز البحوث والدراسات، مكتبة فزار مصطفى الباز، مكة، الرياض، ط. الأولى، 1997م، م288/1-289.

س ل 1.E

1-Take your adornment at every mosque.[2] 154 غا

2-O'children of Adam! Wear your beautiful apparel at time and place. 1013y.

3-Look to your adornment at every place. (195/p).

المعنى المعجمي للفظ زينة والمقابل له:

A: اسم جامع لكل ما يتزين به الإنسان

Beautiful, adornment: E

قرائن لغوية:

[يا بني آدم] [خذوا زينتكم] [عند كل مسجد]

مركب اسمي — مركب فعلي — مركب اسمي — مركب اسمي

يا — مركب إضافي (بني — آدم) — خذ — وا — زينة — كم — مركب ظرفي (عند كل) — مركب إضافي (كل مسجد)

المصدر+كم (بنو آدم)=تخصيص نوع الزينة وربطها بالمكان [عند كل مسجد] لأن العبرة للعموم لا للسبب.

---

(1)الأعراف 31، أي لباسكم عند كل صلاة. الكليات 493 أو ثيابكم لمواراة عورتكم. تفسير البيضاوي ج8/3 وقال: زينة الله: من الثياب وسائر ما يتجمل به.

(2)ذكر في هامش 1013 ص347: Construed to mean notoly clothes that but to let and cleanliness. Attention to hair and other small personal details.

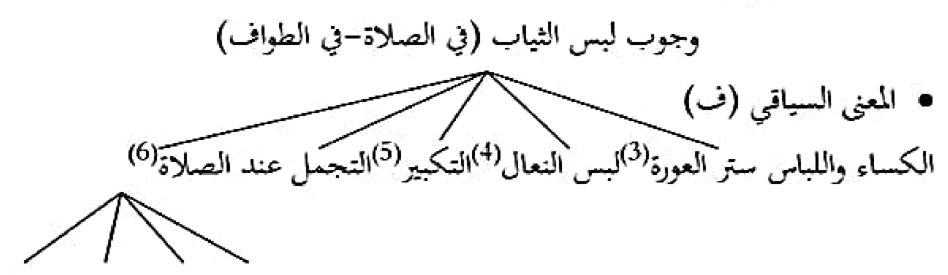
قرائن مقامية: المتكلم: الله تعالى. المبلغ: الرسول.

المستمع: (خ: بنو آدم كافة، ع: المسلمون خاصة) الخطاب موجه إلى: المشرك والمسلم، الزمان: قبل الهجرة، المكان: مكة.

ظروف مصاحبة: ارتبط المقام بعادة العرب في الطواف بالبيت عراة- إلا قريش- إلا أن تعطيهم الحُمْسُ ثياباً، ومن لم يكن له صديق من العرب يعيره ثوباً، ولا يسار يستأجره به، كان بين أحد أمرين: إما أن يطوف عرياناً، وإما أن يطوف في ثيابه، فإذا فرغ ألقى ثوبه عنه فلم يمسه، وكان هذا الثوب يسمى "اللَّقَى"[1].

معتقد: كانوا يقولون: لا نعبد الله في ثياب أذنبنا فيها، وقيل تفاؤلاً ليتعروا من الذنوب كما تعروا من الثياب.[2]

- المعنى السياقي (ع)



---

(1) القرطبي 2707/3، الكشاف 100/2، ابن كثير 210/2، التحرير والتنوير 92/8-93.

(2) الكشاف 100/20 وانظر: معاني القرآن للفراء ج377/1.

(3) ستر العورة شرط بل فرض من فروض الصلاة. القرطبي 2709/3، فتح الباري 177/2.

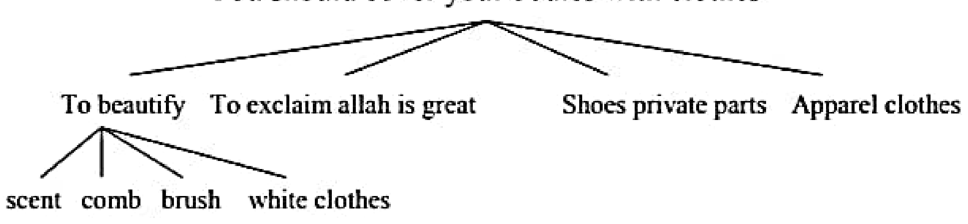
(4) لما رواه كرز بن وبره عن عطاء بن أبي هريرة عن النبي ρ أنه قال ذات يوم: خذوا زينة الصلاة قيل وما زينة الصلاة؟ قال: البسوا نعالكم فصلوا فيها وذكر مكي أنه غير صحيح. المحرر الوجيز 393/2، القرطبي (السابق نفسه).

(5) رفع الأيدي في الركوع. القرطبي 2709/3.

(6) ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد ويكون بلبس الثوب الأبيض واستخدام السواك والطيب والمشط. الكشاف 100/2. وانظر المحرر الوجيز لابن عطية 392/2.

ثوب أبيض سواك مشط طيب

- المقابل المقترح:



س ل [2.A قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ] [الأعراف: 32].

ل س 2 E

1-Say, "who has prohibited the adornment of Allah"[1].

2-Say who hath forbidden the beautiful (gifts of god 348y).

3-Say who hath forbidden the adornment Allah. (195/p).

المعنى المعجمي المقابل للفظ زينة: adornment

قرائن لغوية: بدأت الآية باستفهام إنكاري قصد به التهكم وقرينة التهكم هي قرينة مصاحبة اسم الزينة للفظ الجلالة، ووصفها بالتي وصلتها (التي أخرج لعباده) مما يتضح معه انتفاء التحريم.[2]

قرينة المصاحبة: [زينة الله] اسم+اسم (لفظ الجلالة) أفادت الزينة التي أحلها الله

---

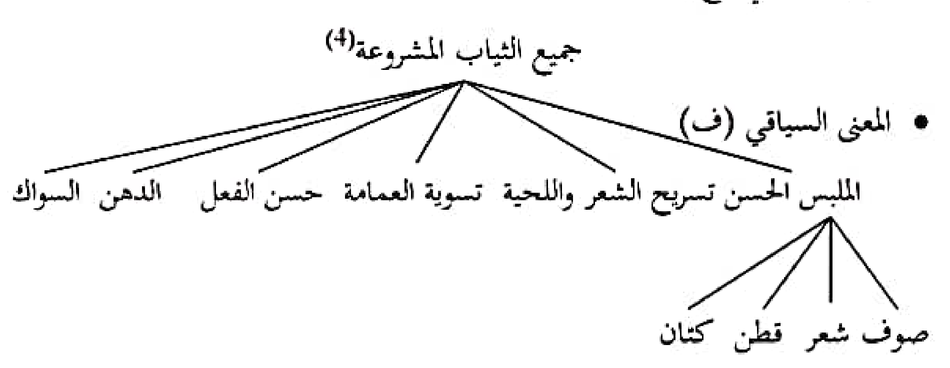
(1) غا 154.

(2) التحرير والتنوير 95/8 وما بعدها.

في الشريعة.[1]

قرائن مقامية: المتكلم: الله سبحانه وتعالى، المستمع: الرسول ρ، المكان: مكة، الزمان: قبل الهجرة. لينقل الخطاب إلى العرب الذين يتعرون عند الطواف ويحرمون على أنفسهم ما أخرجه لهم ليتزينوا به في الجاهلية من الثياب وغيرها. وعن يونس: أنهم كانوا إذا حجوا أو اعتمروا حرموا الشاة عليهم وما يخرج منها.[2] وقال الطبري: ولقد أخطأ من آثر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان مع وجود السبيل إليه من حِلّه. وذكر أن اللباس الذي يزرى بصاحبه كأنه لسان شكوى من الله تعالى ويوجب احتقار اللابس وهذا كله مكروه منهي عنه.[3]

- المعنى السياقي (ع)



---

(1) المحرر الوجيز- ابن عطية 393/2.

(2) تفسير الطبري ج109/18 وقيل: إن المشركين حرموا على أنفسهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي وما في بطونها وحرم بعض المشركين أنفسهم من أشياء في الحياة الدنيا مثل اللباس في الطواف.. التحرير والتنوير 211/8.

(3) تفسير القرطبي 2712/3، وابن كثير 211/1.

(4) المحرر الوجيز 393/2.

• المقابل المقترح:

Allowed fine clothes



Brushing Teeth | Crème | Combing hair and bear | Beautiful behaviour | neatness turban | Fine clothes

س ل [A-3وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً] [يونس: 88].

1-and Musa said: "our lord surely you have brought" firawan and his chiefs adornment and Riches.(1)

2-(.. on pharaoh and his chiefs splendor and wealth in the fife..) (y506).

3-(.. pharaoh and his chief splendor and riches in the life..) (p.279).

المعنى المعجمي للفظ زينة: splendor-adornment (المتع الرئيسية).

قرائن لغوية: جاءت كلمة كـ"زينة" نكرة ومنونة لتفيد العموم والشمول لكل أنواع الزينة ثم النداء، وما بعده معلوم لدى- الله تعالى- غير أنه توطئة للدعاء ولطلب سلب النعمة.

قرائن مقامية: المتكلم: موسى- عليه السلام-، المستمع: الله تعالى، المكان: مكة، الزمان: ما قبل الهجرة.

أحداث مصاحبة: كان للفراعنة من سعة الرزق ورفاهية العيش، ما سار ذكره في الآفاق؛ فخاطب موسى (عليه السلام) ربه متمنياً عليه- جل شأنه- أن يطمس على أموالهم ويشدد على قلوبهم؛ لأنهم ضلوا عن سبيله وأبو قبول الحق معاندين جاحدين،

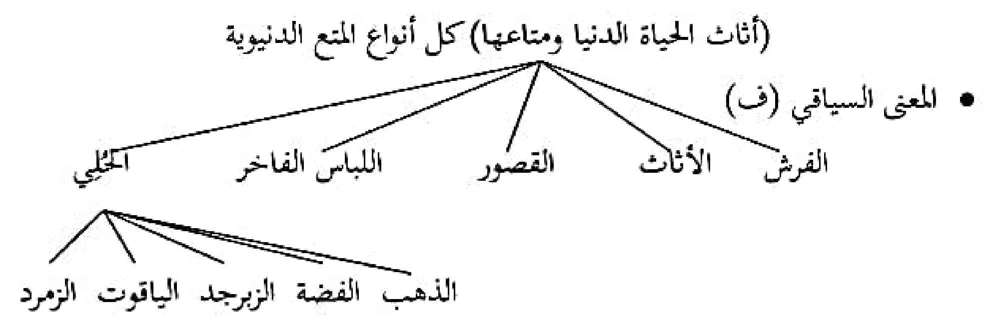
---

(1) المحرر الوجيز 393/2.

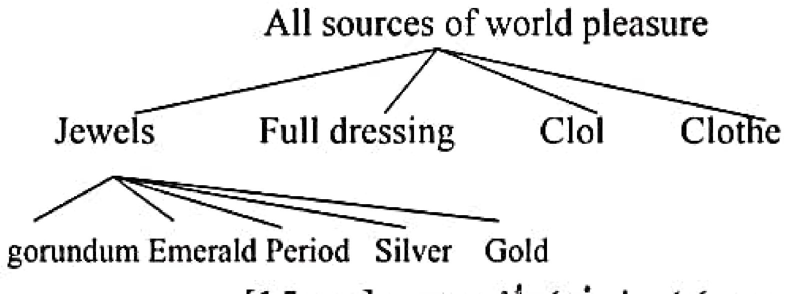
فسأل موسى ربه سلب فرعون وملئه النعمة، وحلول العذاب بهم ليرجعوا عن ضلالهم.(1)

فكان الأثر القولي من الله تعالى: [قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا] [يونس: 89]؛ أما الأثر الفعلي قوله تعالى: [وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ] [يونس: 90] فهو الغرق.

- المعنى السياقي (ع)



- المقابل المقترح



س ل [4.A مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا] [هود: 15].

1-Whosoever is willing (to gain) the present life and its adornment.(2)

---

(1) القرطبي 330/4، الكشاف 365/2، ابن كثير 492/2، الطبري ج108/11، التحرير والتنوير 297 وما بعدها.

(2)القرآن المجيد 223 غا.

2-Hose who desire the life of the present and its glitter to them (y.517).

3-Hose desire the life of the world and its pomp. (p.285).

المعنى المعجمي المقابل للفظ "زينة":

Its pomp, (يتألق) its glitter, adornment.

قرائن لغوية: فعل الشرط في المقام الخطابي أفاد اقتصار الفاعل على ذلك الفعل.(1)

قرائن مقامية: المتكلم: الله تعالى المخاطب: الرسول ρ.

المبلّغ بالخطاب: الكفار (اختاره النحاس). المكان: مكة.

الزمان: قبل الهجرة.

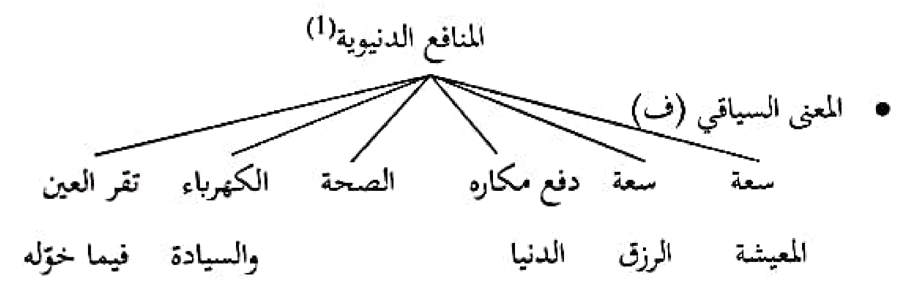
وقيل كل من ينوي بعمله غير الله تعالى. وقيل: اليهود والنصارى، وقيل: أهل الشرك، وقيل: أهل الرياء. وذهب أكثر العلماء إلى أن الآية مطلقة. والمقام: من كانت الدنيا همُّه ونيته جازاه الله بحسناته، ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يجازى بها، وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة.(2) (الأثر الفعلي).

---

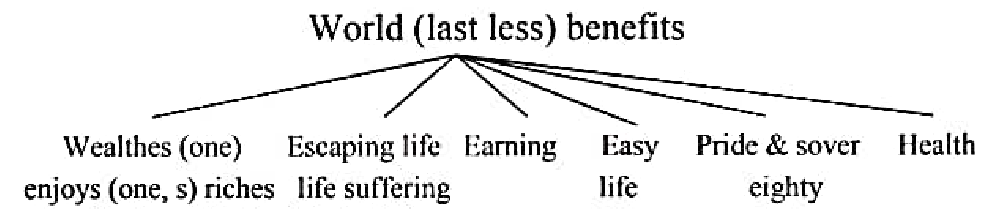
(1)التحرير والتنوير ج23/10.

(2)الطبري ج23/12، القرطبي 3331/4-3333، الكشاف 384/2، ابن كثير 439/2، التحرير والتنوير ج23/1 وما بعدها. ومثله قوله تعالى: [مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنهَا] [الشورى: 20].





• المقابل المقترح



س ل [A .5وَالْخَيْلَ وَالبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً] [النحل: 8].

س ل E .5

1-And horses and mules and asses for you to ride, and sa an adornmen.[2]

2-And (he created) horses, mules, and donkeys, for you to ride and use for show. (y. 657).

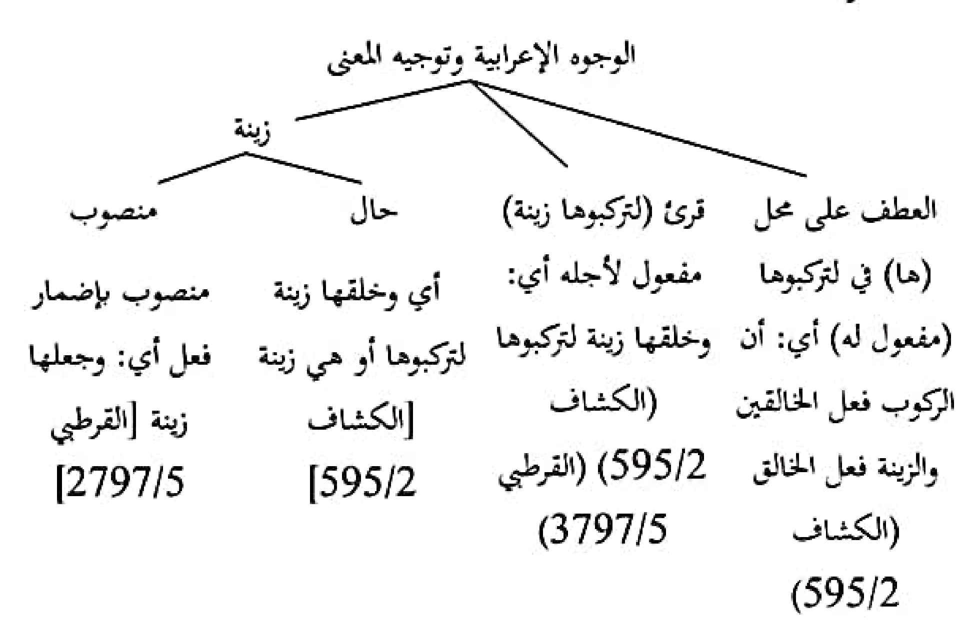
3-And horses and mules… that ride them and for ornament (p.345).

(1) التي تقتضيها الشهوة، وطلب العلو في الأرض. المحرر الوجيز 393/2.

Yh 268.(2)

المعنى المعجمي المقابل للفظ زينة: (ornament- for show- adornment)

قرائن لغوية: تنوين لفظ زينة وتنكيره للعموم، وجعلوا له أوجه إعرابية وجهت الدلالة نحو:



القرينة المقامية: الخطاب موجه من: الله سبحانه وتعالى.

المبلِّغ: الرسول ρ، المبلغ له: المسلمون، المكان: مكة.

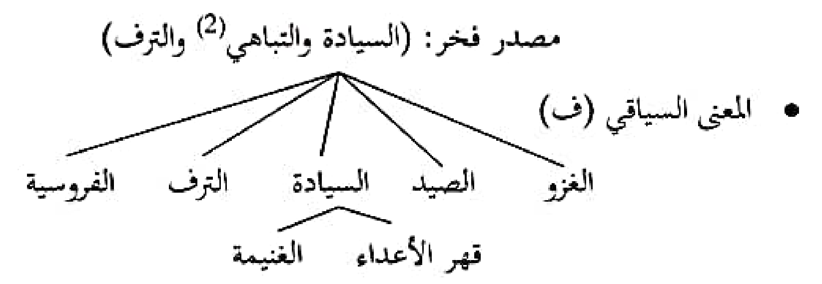
الزمان: قبل الهجرة (أو المقصود أهل مكة).

أحداث مصاحبة: أن المسلمين أكلوا لحوم الخيل في زمن الرسول ρ، ولكنه كان نادراً في عاداتهم، وحرمه مالك وأبو حنيفة استناداً إلى قوله تعالى: "لتركبوها وزينة"(1)، وجمهور أهل العلم على إباحة أكلها.(1)

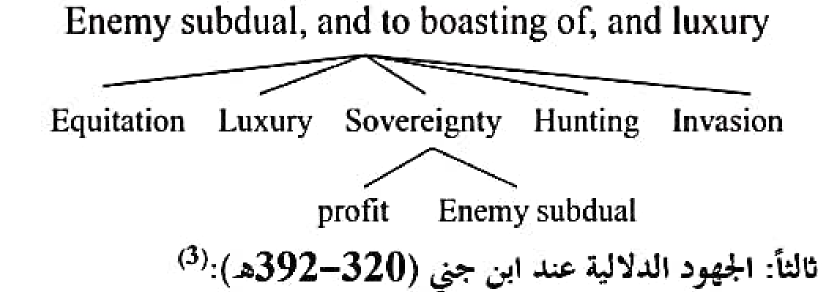
---

(1)التحرير والتنوير 109/14 وقال: لا دليل في الآية على التحريم؛ لأن أكلها نادر الخطور بالبال. السابق 109/14.





- المقابل المقترح



ثالثاً: الجهود الدلالية عند ابن جني (320–392هـ):[3]

في القرن الرابع الهجري، ينهض ابن جني عالماً لغوياً، قدم دراسات كانت ولازالت لها فاعليتها في الثقافة اللغوية، والنشاط الفكري، إنْ على المستوى النظري المنهجي أو على المستوى الإجرائي التطبيقي. ولذلك يعد ابن جني من أعظم العلماء الذين قدموا

---

(1) السابق نفسه.

(2) وذلك لقول النبي ρ: ((الإبل عز لأهلها، والغنم بركة والخيل في نواصيها الخير)). وذلك لما فيها من الغنيمة المستفادة للكسب والمعاش، وما يوصل إليه من قهر الأعداء وغلب الكفار، وإعلاء كلمة الله تعالى. القرطبي 3797/5-3804.

(3) البحث من كتاب: علم الدلالة، دراسة: منصور عبد الجليل، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001.

نموذجاً مشرقاً لمباحث اللغة في التراث العربي المعرفي، فبدت اللغة العربية في "خصائصه" لغة لا تدانيها لغة لما اشتملت عليه من سمات حسن تصريف الكلام، والإبانة عن المعاني بأحسن وجوه الأداء، كما فتح أبواباً بديعة في العربية لا عد للناس بها قبله كوضعه لأصول الاشتقاق بأقسامه، ومناسبة الألفاظ للمعاني[1] ومنها "تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني"، كما ناقش ابن جني مسألة نشأة اللغة التي كانت تشغل مكاناً مهماً في البحوث اللغوية آنذاك، وأوضح بتعليل منطقي أن اللغة أكثرها مجاز صار في حكم الحقيقة، وما يبرز قدرة ابن جني على رصد الظواهر اللغوية وتحليلها بمنطق علمي، هو ما قدمه حول التفريع الدلالي للفعل في "خصائصه". وفيما يلي سنعرض لبعض تلك المسائل عرضاً نحاول من خلاله إبراز جهود ابن جني في ميدان "الدلالة".

أ-اللفظ والمعنى:

تناول ابن جني في كتابه الخصائص عرض ثلاث علائق متصلة هي: العلاقة بين اللفظ والمعنى، والعلاقة بين اللفظ واللفظ، ثم العلاقة بين الحروف ببعضها. وأفرد لذلك أبواباً من ذلك "باب في تلاقي المعاني على اختلاف الأصول والمباني" حيث عرض فيه لاشتراك الأسماء في المعنى الواحد ورده لوجود تقارب دلالي بين تلك الأسماء، يقول في مستهل هذا الباب: "هذا فصل من العربية حسن كثير المنفعة، قوي الدلالة على شرف هذه اللغة، وذلك أن تجد للمعنى الواحد أسماء كثيرة، فتبحث عن أصل كل اسم منها فتجده مفضي المعنى إلى معنى صاحبه "وفي ذلك إشارة إلى وقوع الترادف في اللغة الذي كان ينكره بعض علماء اللغة في عصر ابن جني ومنهم أستاذه أبو علي الفارسي. وما اشتهر به صاحب الخصائص هو إبراز لظاهرة لغوية تتمثل في تقارب الدلالات لتقارب

---

(1) الخصائص، ج1، ص27-28. كان لأستاذه أبي علي الفارسي تقسيمات في الاشتقاق ولكن ليست كتقسيماته خاصة في الاشتقاق الكبير. انظر كذلك ج2، ص133.

حروف الألفاظ، وهو ما سماه "تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني" سجل فيه أن مخارج حروف اللفظ التي تقترب من مخارج حروف لفظ آخر، هما متقاربان دلالياً لتقاربهما فنولوجياً وتلك خاصية من خصائص اللغة العربية. وهذه الملاحظة تنم على دقة وعمق رؤية ابن جني لنظام اللغة ففي شرحه للفظ "أزا" الوارد ذكره في قوله تعالى: [ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا](1) يقول ابن جني في قوله تعالى: [تأزهم أزا]: أي تزعجهم وتقلقهم، فهذا في معنى تهزهم هزاً والهمزة أخت الهاء، فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين، وكأنهم خصوا هذا المعنى بالهمزة لأنها أقوى من الهاء، وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهز، لأنك قد تهز ما لا بال له، كالجذع وساق الشجرة، ونحو ذلك"(2). كما قدم ابن جني تطبيقات أخرى مست ألفاظاً وجد بين حروفها اشتراكاً في الصفات الفنولوجية، فأفضى ذلك إلى تقاربها في الدلالة من ذلك المقابلة بين فعل (ج ع د) والفعل (ش ح ط). يقول ابن جني: "فالجيم أخت الشين والعين أخت الحاء والدال أخت الطاء". كما كان يرى أن هناك مناسبة طبيعية بين الصيغة المعجمية ودلالتها، وذلك فيما يخص أصوات الطبيعة. وهي مسألة لم تكن محل خلاف بين العلماء في عصره، إلا أن ابن جني قدم تعليلاً بديعاً، للخليل بن أحمد ولسيبويه، يفسر العلاقة الطبيعية بين الصوت ودلالته، فيقول الخليل: "كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومداً فقالوا: صرّ وتوهموا في صوت البازي تقطيعاً فقالوا: صرصر". ويقول سيبويه في المصادر التي جاءت على وزن فعلان أنها تأتي للاضطراب والحركة نحو القفزان والغليان، والغثيان فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال"(3). وهذا ما أدرجه ابن جني

---

(1) سورة مريم، الآية 83.

(2) الخصائص، ج2، ص146.

(3) المصدر السابق، ج2، ص152، وانظر الكتاب لسيبويه، ج4، ص14.

في باب "إمساس الألفاظ أشباه المعاني"، إذ التأليف الصوري للفظ يرسم القيمة الدلالية للمعنى الذي يقابله، وإن كان ذلك صعباً تطبيقه على كل عناصر النظام اللغوي إلا أن ذلك يبقى طرحاً جريئاً من قبل ابن جني له قيمته العلمية وسبقه المعرفي في عصره، وهي محاولات كانت تنتظر من يعطيها طابع النظرية الشاملة بعد ابن جني، ولكن وجد أتباع لم يكملوا ما بدأه أبو الفتح ابن جني وإنما انتحلوا بحوثه ونسبوها إلى أنفسهم كابن سيده صاحب كتاب "المحكم" المتوفى سنة 458هـ.[1] وقد قام ابن جني بذات الصنيع في باب الاشتقاق، خاصة في تلك التقلبات المورفولوجية الستة التي تنتج عن الصيغة المعجمية الثلاثية، إلا أنه بعد أن ربط تلك الصيغ دلالياً بالصيغة الأم، وجد صيغاً مهملة لا واقع لغوي لها، وكان في بعض الأحيان يلحق الأمثلة قسراً بالقاعدة وتلك ملاحظة أخذه عنها علماء اللغة، بل إن ابن جني نفسه قد أقر بصعوبة المسلك في إجراء التقلبات الستة وربطها بدلالة الأصل الثلاثي فقال: "وهذا أعوص مذهباً، وأحزن مضطرباً وذلك أنا عقدنا تقاليب الكلام الستة على القوة والشدة..."[2] إن علاقة الرمز اللغوي بدلالته لا يمكن- كما قرر الدرس اللساني الحديث- أن تكون قسرية ولا طبيعية، لأن ذلك سيبقي النظام اللغوي في حالة من الجمود ولكن القول بالعلاقة الاعتباطية أو الكيفية (arbitraire) بين اللفظ ودلالته، يعطي للغة، المرونة اللازمة خلال التغيّر الذي يطرأ على البنية اللغوية من جراء الأحداث الناجمة عن الاستعمال اللغوي وعن تطور بعض المدلولات، ما كان التغير ليحصل لو لم تكن الإشارة بالحقيقة "كيفية" أي اعتباطية"[3].

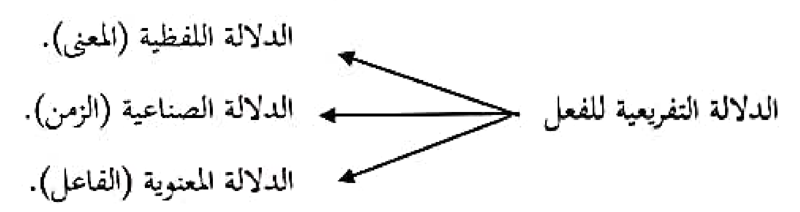
---

(1) المصدر نفسه، ج1، ص29 (كلام المحقق محمد علي النجار).

(2) المصدر نفسه، ج2، ص134-135.

(3) د.ميشال زكريا، الألسنية (علم اللغة الحديث)، ص183.

ب-التفريغ الدلالي للفعل: يعقد ابن جني تفريعاً دلالياً للفعل يضبط سماته الذاتية والانتقائية، فأبرز معايير تنتظم وفقها العلامة اللسانية الدالة، وقد خصّ ابن جني الفعل وكان يسميه اللفظ. بهذا التوزيع لكونه "يعد القطب الرئيسي في العملية الإبلاغية إذ إنه النواة الدافعة للحركة المتجددة المتوخاة من الأحداث المحققة في الواقع اللغوي، ولذلك فإن الأفعال كما قال آدم سميث (A.Smith) نطفة اللغات"[1]. فالفعل يحمل دلالة بنيته المورفولوجية، كما يقدم لنا سمات الفاعل ومكوناته الأساسية، إضافة إلى الدلالة الزمانية التي تعين على تحديد قيمة الدلالة العامة للصيغة المعجمية. يقسم ابن جني الدلالة إلى ثلاثة أقسام: الدلالة اللفظية والدلالة الصناعية والدلالة المعنوية، ويفاضل بينها جاعلاً الدلالة اللفظية على رأس الدلالات الثلاثة ثم تليها الدلالة الصناعية فالمعنوية. يقول ابن جني: "فمنه جميع الأفعال، ففي كل واحد منها الأدلة الثلاثة. ألا ترى إلى قام و(دلالة لفظه على مصدره) ودلالة بنائه على زمانه، ودلالة معناه على فاعله فهذه ثلاث دلائل من لفظه وصيغته ومعناه"[2] ويمكن توضيح ذلك بالرسم التالي:



1-الدلالة اللفظية: وهي الدلالة المعجمية ودلالة البنية المورفولوجية على الحدث، وقد عدّها ابن جني على رأس الدلالات الثلاثة لأنها "دلالة أساسية تعد جوهر المادة اللغوية المشترك في كل ما يستعمل من اشتقاقاتها وأبنيتها الصرفية"[3] ففعل "قعد" مثلاً

---

(1) المكون الدلالي للفعل في اللسان العربي، ص33.

(2) الخصائص، ج3، ص98.

(3) د.فايز الداية، علم الدلالة العربي، ص20.

يدل بصيغته المعجمية على حدث خاص ذي دلالة معينة وهو المصدر "القعود"، وإنه متعلق بفاعل تعلقاً معنوياً، ومنه اشتقت صيغ أخرى لها ارتباط بالدلالة الأساسية للفعل منها: مقعد- مقاعد- قاعدة وما إلى ذلك من الصيغ. وما يجدر ذكره أن قيمة الدلالة الأساسية للصيغة الصرفية، تعتبر المركز الذي يستقطب كل الدلالات المتفرعة عنه، بحيث تدخل في علائق وظيفية مختلفة وتبقى مشدودة إلى الدلالة اللفظية للفعل.

2-الدلالة الصناعية: وهي دلالة بنية (اللفظ) المورفولوجية على الزمن، وهي تلي الدلالة اللفظية لأن اللفظ يحمل صورة الحدث الدلالي المستغرق لحيز زماني يقول ابن جني: "وإنما كانت الدلالة الصناعية أقوى من المعنوية من قبل إنها وإن لم تكن لفظاً فإنها صورة يحملها اللفظ، ويخرج عليها ويستقر على المثال المعتزم بها، فلما كانت كذلك لحقت بحكمه وجرت مجرى اللفظ المنطوق به فدخلا بذلك في باب المعلوم بالمشاهدة"[1]. فكانت الدلالة الصناعية مع أنها دلالة غير لفظية وإنما يستلزمها اللفظ في حكم الدلالة اللفظية، التي هي صورة تلازم الفعل، فأين كان هو مشاهداً معلوماً كان الزمن المقترن به معلوماً بالمشاهدة أيضاً، من مسموع اللفظ، وينظر ابن جني في هذا المجال إلى المصدر على أنه مفتوح على الأزمنة الثلاثة فيقول: "وكذلك الضرب والقتل: نفس اللفظ يفيد الحدث فيهما، ونفس الصيغة تفيد فيهما صلاحهما للأزمنة الثلاثة على ما نقوله في المصادر"[2].

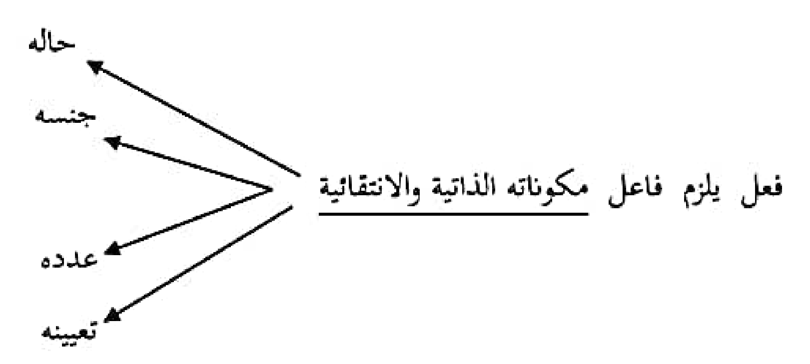
3-الدلالة المعنوية: إن الفعل يحدّد سمات فاعله الذاتية والانتقائية، الأساسية والعرضية، وذلك من جهة دلالته، ويعرف ذلك بطريق الاستدلال، فيتحدد جنس الفاعل، وعدده، وحاله، ليس من الصيغة الفونولوجية للفعل بل من مؤشرات خارجة عن

---

(1) الخصائص، ج3، ص98.

(2) المصدر السابق، ج3، ص101.

الفعل. ففعل (قعد) يدل على حادث مقترن بزمن ماض، وقد يتعرض مجاله الزمني إلى الاتّساع ليشمل زمن الحاضر أو المضارع المستقبل في سياق لغوي يحمل خصائص تركيبية ودلالية ومقامية معينة، أما دلالته على (الفاعل) فهي دلالة إلزام، يقول ابن جني "ألا تراك حين تسمع (ضَرَب) قد عرفت حدثه وزمانه، ثم تنظر فيما بعد، فتقول: هذا فعل ولا بد له من فاعل، فليت شعري من هو؟ وما هو؟ فتبحث حينئذ إلى أن تعلم الفاعل من هو وما حاله، من موضع آخر لا من وضع مسموع ضرب، ألا ترى أنه يصلح أن يكون فاعله كل مذكر يصحّ منه الفعل مجملاً غير مفصل"[1]. إن السمات المعنوية التي رصدها ابن جني في هذا المقام يمكن على ضوئها وضع نسق تفريعي لفئة (الفاعل) تخصّ كل فعل من اللسان العربي وتوضيحه كالآتي: فعل يلزم فاعل مكوناته الذاتية والانتقائية.

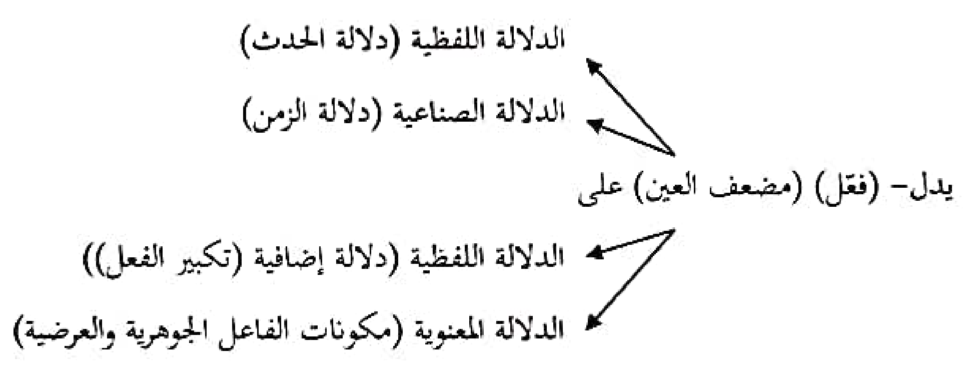


ويورد ابن جني تفريعاً دلالياً لصيغ مختلفة من الألفاظ (الأفعال)، يحدّد على ضوئها سمات عامة تخصّ الفعل وصاحبه فيقول: "وكذلك (قطّع) و(كسّر)، فنفس اللفظ ها هنا يفيد معنى الحدث، وصورته تفيد شيئين: أحدهما الماضي، والآخر تكثير الفعل، كما أن (ضارب) يفيد بلفظه الحدث، وببنائه الماضي، وكون الفعل من اثنين،

---

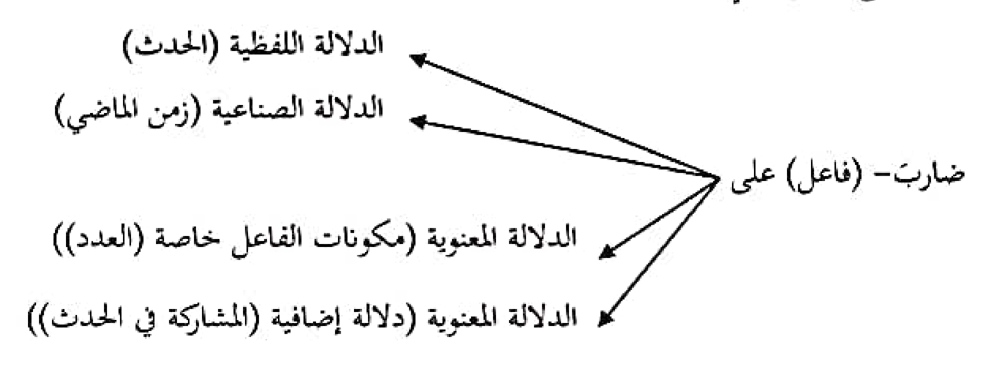
(1) المصدر السابق، ج3، ص89-99.

وبمعناه أنّ له فاعلاً فتلك أربعة معان..."[1] فالتفريع الدلالي الإضافي الذي يكمل به ابن جني تفريعه الأول يمكن توضيحه كالتالي:



إن هذه السمات الدلالية للفعل وما ينضوي تحتها من سمات فرعية محدّدة، هي في جوهرها سمات مميزة للفعل (كسّر)، الذي له توارد خاص في سياق معيّن، ويستلزم فاعلاً يحمل مكونات تمييزية جوهرية وعرضية، فضلاً عمّا يوحيه (الفعل) فيما يخص (المفعول به)، وذلك بحسب قواعد الوقوع أو الرصف التي تتحكم في بنية التركيب الصحيح، حيث يستدعي الفعل، فاعلاً معيّناً، ومفعولاً معيّناً أيضاً...

أما فعل (ضَارَب) وهو ذو صيغة مورفولوجية مختلفة عن (كسّر) يمكن توضيح سماته على النحو التالي:



---

(1) الخصائص، ص101.

إن جملة التفريعات التي أوردها ابن جني للركن الفعلي تؤكد على أهمية (الفعل) في الموروث اللساني إذ غدا حقلاً ألسنياً يغطي مفاهيم مختلفة، تخصّ كل متعلقاته، التي يحدّد معها توارداً سياقياً صحيحاً، ويمكن أن يتخذ ذلك كتصنيف مهم في حصر السمات الدلالية وضبطها ضبطاً محكماً لتغتدي فيصلاً فارزاً للمداخل المعجمية، وهي المداخل التي تكتسب مجالها الدلالي من خلال توافقها، أو عدم توافقها مع السمة المميزة[1] وإن تلك الأنماط التي عقدها ابن جني مع كل بنية مورفولوجية لا تختلف كبير اختلاف، مع تلك السمات المميزة المعتمدة في الدرس الدلالي الحديث.[2]حيث تلعب الملامح المشتركة بين وحدات السياق اللغوي دوراً مهماً في تأمين التوارد الصحيح.

ج-الحقيقة والمجاز: في مبحث الحقيقة والمجاز يعقد ابن جني بابين أولهما في:

الفرق بين الحقيقة والمجاز، وثانيهما في: أن المجاز إذا كثر لحق بالحقيقة.

في الباب الأول تناول أبو الفتح بن جني تعريف الحقيقة والمجاز على أساس الوضع الأول الذي يحدّد الاستعمال الأصلي للصيغة، أما دواعي لانتقال اللفظ من دلالته الحقيقية إلى دلالة المجاز فقد حصرها ابن جني في ثلاث: الاتساع والتوكيد والتشبيه. فانتقاء هذه الدواعي يبقي اللفظ على دلالته الحقيقية، يعرّف ابن جني الحقيقة والمجاز فيقول: الحقيقة: ما أقرّ في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة. والمجاز: ما كان ضد ذلك[3]. ثم يحدد دواعي التجوز فيقول: "وإنما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة، وهي: الاتساع والتوكيد والتشبيه، فإن عدم هذه الأوصاف كانت الحقيقة البتة"[4].

(1) الأستاذ أحمد حساني، المكون الدلالي للفعل في اللسان العربي، 32.

(2) انظر الباب الأول من البحث، الفصل الثالث: النظرية التحليلية، ص72.

(3) الخصائص، ج2، ص442.

(4) المصدر السابق، ج2، ص442.

فالمجاز في أصله هو إضافة معنى جديد إلى المعنى القديم (الحقيقة)، وفي ذلك توكيد للمعنى وتشبيه المعنيين الأول بالثاني.

أما الاتساع فلأن في لائحة الملامح الحقيقية للدال يُضاف ملمح جديد على سبيل المجاز، يقرر ابن جني بتطبيق إجرائي فيقول: "... وكذلك قول الله سبحانه: [وأدخلناه في رحمتنا] هذا هو مجاز، وفيه الأوصاف الثلاثة، أما السعة فلأنه كأنه زاد في أسماء الجهات والمحال اسماً هو الرحمة، وأما التشبيه فلأنه شبه الرحمة- وإن لم يصح دخولها- بما يجوز دخوله فلذلك وضعها موضعه. وأما التوكيد فلأنه أخبر عن العرض بما يخبر به عن الجوهر. وهذا تعال بالعرض، وتفخيم منه إذ صيّر إلى حيز ما يشاهد ويلمس ويعاين[1]. وإن تحقق هذه المعاني مرتبط بوجود قرينة صارفة من إتيان المعنى الحقيقي لفظية في المجاز اللغوي وعقلية في المجاز المرسل.

أما في الباب الثاني فبعد طول معاينة للغة، يرى ابن جني أن أكثر كلام العرب إنما هو مجاز وذلك ناتج عن كثرة دوران اللفظ على الألسنة، بدلالته المجازية اكتسب سمة الدلالة الحقيقية، وإن تلك التراكيب اللغوية التي تخالها ذات دلالة حقيقية هي في الأصل ذات دلالة مجازية محققة لتلك المعاني الثلاثة التي ذكرنا، ويسوق ابن جني في سبيل أمثلة كثيرة، يقول: "اعلم أن أكثر اللغة مع تأمله مجاز لا حقيقة، وذلك عامة الأفعال، نحو قام زيد، وقعد عمرو (...) وجاء الصيف، وانهزم الشتاء..."[2] ويلمس ابن جني البحث في الزمن الطويل الغابر، عن الأصل الذي وظّفت لسببه الكلمة وهو محاولة الجمع بين التكوين اللغوي للكلمة ودلالتها المتداولة آنياً، ففي بحثه عن أصل فعل (ع ق ر) ودلالته على الصوت في قولنا: (رفع عقيرته) يقول ابن جني: "أنّ رجلاً قطعت إحدى رجليه

(1) المصدر السابق، ج2، ص443.

(2) انظر المصدر نفسه، ج2، من ص 442 إلى ص458.

فرفعها، ووضعها على الأخرى ثم صرخ بأعلى صوته فقال الناس: (رفع عقيرته)(1). فكان الأصل في استعمال (ع ق ر) للدلالة على الصوت المرتفع كالصراخ ولكن خفيت أسباب التسمية لبعدها الزمني فأضحت تدل على من رفع رجله دلالة حقيقية مع أنها في أصل وضعها كانت تدل على الصوت. فحصل نقل لدلالة اللفظ من مجال إلى مجال، انتقلت عبره المجازات إلى الاستعمال العادي الحقيقي. ويلجأ ابن جني إلى تقديم العلل المنطقية الفلسفية(2) على صحة ما ذهب إليه. وإن كنا نرى أن رؤيته هذه في علاقة الدلالة بالحقيقة والمجاز أن فيها بعض التعسف لأنه إذا قلنا أن أكثر اللغة مجاز وحاولنا أن نرد كل صيغة إلى دلالتها الأصلية لألفينا صيغاً قد تعرضت لحركة نقل متتالية فنردها إلى أصل هو بذاته مجاز، ولظللنا نتبع الأصول فلا نعثر إلا على الفروع. وهذا حقيقة ما هو سمة في اللغة التي من مميزاتها المرونة والتغيير ورفض كل قاعدة تريد أن تبقيها متحجرة جامدة.

5-نشأة اللغة: يناقش ابن جني قضية نشأة اللغة التي نجد لها حضوراً مكثفاً في مؤلفات الأقدمين ولعل ذلك راجع إلى ارتباط هذه القضية بمشكلة كانت نقطة خلاف كبيرة بين العلماء، بل تعد سبب الاصطدام الذي حصل بين السياسي والديني ونعني بها مشكلة "خلق القرآن" يعرض ابن جني لأراء علماء عصره في مسألة نشأة اللغة فيصرح في باب القول على أصل اللغة أنها إلهام أم اصطلاح: "هذا موضع محوج إلى فصل تأمل، غير أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح لا وحي وتوقيف. إلا أن أبا علي- رحمه الله- قال لي يوماً: هي من عند الله، واحتج بقوله سبحانه: [وعلّم آدم الأسماء كلها](3) وهذا لا يتناول موضع الخلاف. وذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويله:

---

(1) المصدر نفسه، ج1، ص66.

(2) المصدر نفسه، ج2، ص488، انظر التعليل الذي قدمه للتركيب (قام زيد) على اعتباره تعبيراً مجازياً.

(3) سورة البقرة الآية: 31.

اقدر آدم على أن واضع عليها، وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة"(1). وبهذا التعليق الأخير على قول أبي علي الفارسي يكون ابن جني قد أفصح عن مذهبه فكان أميل إلى القول بعرفية الدلالة اللغوية مقدّماً تأويلاً للآية الكريمة السابقة الذكر. يكاد يجمع عليه أغلب العلماء الذين قالوا بالاصطلاح، يعني، أن الإنسان قد ركّبت فيه استعدادات فطرية، وقواعد ذهنية بها يستطيع أن يسمي الأشياء، ويضع نظاماً علامياً مطرداً مع كل الأشياء الجديدة على غرار وضعه للرموز التي تخص نظام المرور أو تلك المستعملة في نظام الملاحة البحرية (الإشارات الضوئية) فهذا كله من باب التواضع والتوفيق، والحقيقة أن ابن جني لا يكاد يستقر على رأي حيث ذكر مذهب الذين قالوا بطبيعية اللغة، المستلهمة من أصوات الطبيعة، واستحسنه وقبله. يقول في ذلك: "وذهب بعضهم (أي بعض العلماء) إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوي الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء. وشحيح الحمار، ونعيق الغراب وصهيل الفرس وتريب الظبي، ونحو ذلك، ثم وُلدت اللغات عن ذلك فيما بعد. وهذا عندي وجه صالح، ومذهب متقبل"(2). ولكن ابن جني ما يلبث أن يقوي في نفسه شعور يجذبه إلى الاعتقاد بكون اللغة توقيفاً من عند الله تعالى، وذلك ظاهر من تناسق أجزائها وموافقتها لكل حال ومقام، ثم ما اجتمع لديه من أقوال العلماء من أساتذته من أن اللغة وحي وإلهام من عند الله. كل ذلك دفع ابن جني إلى ترجيح المذهب القائل بتوقيفية اللغة يقول في ذلك: "إني إذا ما تأملت حال هذه اللغة الشريفة، الكريمة اللطيفة، وجدت فيها من الحكمة والدقة والإرهاف والرقة ما يملك علي جانب الفكر، حتى يكاد يطمح به امام غلوة(3) السحر، فمن ذلك ما نبّه عليه أصحابنا- رحمه الله-، ومنه ما حذوته على أمثلتهم، فعرفت بتتابعه وانقياده وبعد مراميه وأماده صحة ما وفقوا لتقديمه منه"(4).

---

(1) الخصائص، ج1، ص40-41.

(2) الخصائص، ج1، ص46.

(3) غلوة السحر: الغاية في سباق الخيل، يريد أنه يدنو من غاية السحر.

(4) المصدر السابق، ج1، ص47.

اللغوي فإننا نتجاهل عمداً هذه الانزلاقية الصوتية، وتدعى إمكان إيجاد الحدود بين صوت وصوت، وإمكان إخراج صوت من هذه السلسلة وإحلال آخر محله. ومن المعلوم أن الدراسات اللغوية- لأغراض عملية أبجدية ونحوية ودلالية- تقبل أن تربط عدداً من هذه الأصوات اللغوية برباط واحد، تطلق عليه اصطلاحاً شاملاً كالنون مثلاً. فالنون اصطلاح شامل يدخل تحته عدد من الأصوات، كالذي في بداية "نحن"، والذي قبل الثاء في "إن ثاب"، وقبل الظاء في "إن ظهر"، وقبل الشين في "إن شاء"، وقبل القاف في "إن قال"، مع اختلاف واضح بين هذه الأصوات في المخرج. لاحظ أن صوت النون في "إن ثاب" و"إن ظهر" مما يخرج فيه اللسان، كالثاء والذال والظاء تماماً. لقد اصطلحنا على أن نسمي هذا العدد من الأصوات حرف النون، فنجعل الحرف أعم من الصوت كما سبق. وهذا أيضاً هو المقصود عند بعض الباحثين بالاصطلاح "فونيم"، إذاً فالفونيم في أحد معانيه يقصد به معنى الحرف.

وهو في رأي دانيال جونز[1] عائلة من الأصوات التي يعتبر كل منها عضواً من أعضاء العائلة، يترابط مع الآخرين بهذه الطريقة التي شرحناها في النون، ويسمى واحد من هؤلاء الأعضاء عضواً رئيسياً. والسبب الذي ينبني عليه اختيار الرئيس من بين الأعضاء واحد مما يأتي:

1- إما أن يكون هذا العضو أكثر وروداً في الاستعمال اللغوي من بقية الأعضاء.

2- أو لأنه العضو الذي يستعمل منعزلاً عن السياق.

3- أو لأنه متوسط بين الأعضاء المتطرفة كصوت النون اللثوي في مقابل بقية أصواتها.

---

(1) The Phoneme Theory, Cambridge, 1950.

وتسمى بقية الأعضاء أعضاء ثانوية للفونيم، أو العائلة الصوتية المذكورة.

ولإيضاحه إيضاحاً أكبر يستعمل دانيال جونز كلمة "لغة" بمعنى كلم شخص واحد ذي أسلوب ثابت، ويستعمل اصطلاح "بيئة الصوت" ليقصد الأصوات المحيطة بهذا الصوت في ظروفها كلها، من جهر وكمية وعلو في الصوت وهلم جراً. ثم يقرر بعد ذلك أن الفونيم في لغة ما عائلة من الأصوات متقاربة في خصائصها، تستعمل بطريقة لا تسمح بأن يستعمل أحدها في نفس البيئة الصوتية التي يستعمل فيها الآخر أبداً. ومعنى ذلك أن النون التي قبل الثاء، بما فيها من إخراج اللسان، ومن الصفات الأخرى، لا تحل محل النون التي قبل القاف؛ لأن لكل منهما مكانها وبيئتها الصوتية الخاصة بها. وهذا هو المقصود بمعنى التخارج بين الأصوات؛ فكل صوتين من نفس الحرف متخارجان من جهة الموقع؛ أي لا يقع أحدهما موقع الآخر. والعلاقة بين الأعضاء المختلفين في الفونيم الواحد إما أن تكون عضوية أو صوتية؛ أي أنها إما أن تكون علاقة بالمخرج، أو علاقة بالصفة.

فالعلاقة بين الخاء المهموسة في "يخشى" والمجهورة في "أصِخْ غَيْرَ مَأْمُور" علاقة بالمخرج مع اختلاف الصفة، ولكن العلاقة بين النونات المختلفة التي ذكرناها علاقة بالصفة مع اختلاف المخرج.

ويرى دانيال جونز أن الصوت الواحد لا يمكن، إلا في حالات نادرة، أن يكون منتمياً إلى فونيمين اثنين في الوقت نفسه. ويأتي لذلك بأمثلة كثيرة يمثل بها للقاعدة ولشواذها. ونضيف هنا أن الصوت الشفوي الأسناني الذي نسميه إدغاماً بغنة (ɱ) يكون من أصوات الميم تارة، ومن أصوات النون تارة أخرى. ويتضح ذلك من مقارنة المثالين:

ينفع، دعهم في غيهم.

فنطق النون في ينفع، ونطق الميم في دعهم يتم بالطريقة نفسها. ومن الفونيم ما يكون ذا أعضاء متعددة، كالنون، وما يكون ذا عضو واحد، كالياء.

لقد قلنا من قبل إن أعضاء العائلة الفونيمية الواحدة متخارجون، فالنونات المختلفة متخارجة من حيث الموقع، ولهذا التخارج أهمية خاصة في نهاية الخطورة، من جهة الدلالة؛ لأن الصوتين إذا انتميا إلى فونيمين مختلفين، انتفت عنهما فكرة التخارج، وصح أن يحل أحدهما محل الآخر، ليحدث تعديلاً في الدلالة أو في المعنى المعجمي، بخلق كلمة جديدة، فالمعروف مثلاً أن التاء فونيم غير فونيم الثاء، وأننا إذا وضعنا التاء موضع الثاء من كلمة "ثاب"، تغيرت الكلمة، وتغير معناها، وأصبحت "تاب". فإذا وضعنا فونيم العين بدل التاء، أصبحت "عاب". فإذا استبدلنا ذلك بالخاء، أصبحت "خاب". فإذا حلت الراء محلها أصبحت "راب". والشين "شاب"، والغين "غاب"، وهلم جراً. فحلول أحد الصوتين محل الآخر دليل على أنهما ينتميان لفونيمين مختلفين. وهذا أحد أوجه الكشف عن القيم الخلافية في اللغة. وإضافة الفونيم إلى الكلمة، واستخراجه منها، كاستبداله فيها، يميز الكلمة عن الأخرى. فمثال التمييز بالإضافة "جدّ" و"جدّد"، وبالاستخراج العكس، وقد سبق التمثيل للتمييز بالاستبدال. ومما تتميز به كلمة عن كلمة "الكمية"، كما في قالَ و"قَلَّ"، ففي المثال الأول لين أطول من الفتحة التي في الثاني، وفي الثاني تشديد أطول من الإفراد الذي في الأول، وهذا فرق في الكمية. ومن ذلك النبر، ولكن اللغة العربية استغنت بوسائلها المتعددة عن استخدام هذه الوسيلة من وسائل التمييز بين الكلمات، ومثال التمييز بالنبر في الإنجليزية كلمة Contract مع وضع النبر على أول أصوات الكلمة، وContract مع وضعه على r ومعنى الكلمة الأولى "عَقْد" ومعنى الثانية يتفق اتفاقاً مدوناً. ومن ذلك أيضاً نغمة الكلمة؛ وهي تستخدم في اللغة الصينية وفي لغات غرب أفريقيا وهذا النوع من اللغات يسمى:

Tone Language، كل ذلك يسمى الخلافات الصغرى التي يفرق بها بين كلمة وأخرى. وقد يجري التفريق بخلافين أصغرين أو أكثر، كما في "قُلْ" و"قَالْ" حيث يفرق بينهما بصوت الضمة في مقابل صوت الألف اللينة من جهة، وباختلاف كمية طولهما من جهة أخرى. وكما في "قلْ" و"قَاسْ"، حيث نضيف إلى الخلافين السابقين ثالثاً بين اللام والسين. والمفهوم أن قال في المقارنة الأولى وقاس في الثانية ساكنان بالوقف.

وأهم شيء في هذا الصدد أن يكون مجموع الخلافات الصوتية بين كلمة وكلمة كافياً لأن يبرر دعوى اختلافهما، أما الطريقة التي يتوصل بها إلى إيجاد مجموع هذا، فليس لها مثل هذه الأهمية. وإنما نقول مجموع الخلافات لأن هذه الخلافات باعتبارها فرادى قد لا يكفي واحد منها للتفريق، بنفسه فحسب، بين الكلمتين، ولكنها مجتمعة قد تكفي لذلك.

هذه النظرة إلى الفونيم يمكن أن تسمى نظرة عضوية تركيبية، لأنها تعترف بكلمة "عائلة أصوات". ولكن نظرات أخرى إلى الفونيم قد أخذت تنافسها في التفكير اللغوي، وأهمها النظرة العقلية، والنظرة الوظيفية التركيبية. فأما أصحاب النظرة الأولى فيعتبرون الفونيم صوتاً مفرداً، له تجريد ذهني، أو صورة ذهنية، يستحضرها المتكلم إلى عقله بالإرادة ويحاول بلا وعي أن ينطقها في الكلام، فينجح في بعض الأحوال في تحقيق صورة الصوت بالنطق، ولكنه في أحوال يخفق، فيستحضر أقرب الأصوات إلى هذه الصورة. وهذا شبيه بنظرية المثُل عند أفلاطون.

ولقد نحا "بودوان دي كورتيني" مكتشف هذه النظرية نحواً نفسياً في التفكير فيها حيث عرّف الفونيم بأنه صورة ذهنية، وفرق لهذا بين نوعين من علم الأصوات، أولهما علم الأصوات العضوي، وثانيهما علم الأصوات النفسي. وجعل الأول لدراسة الأصوات المنطوقة، والثاني لدراسة الأصوات المنوية في النطق. ويفرق بين مجموعتين من الرموز

الكتابية الأصواتية، على هذا الأساس أيضاً، أولاهما لكتابة الأصوات المنطوقة، والثانية لكتابة الفونيمات، أو الصور الذهنية، أو الأصوات المنوية في النطق.

ومن أصحاب النظرة النفسية أيضاً سابير[1]، الذي يستعمل في مقاله المعنون "أنماط الأصوات في اللغة"، الاصطلاح "أصوات مثالية"، ليقصد الفونيمات من وجهة النظر العقلية. ويقول بأن "هذه الأصوات المثالية التي يكونها إحساس المرء بالعلاقات المقصودة بين الأصوات الموضوعية أكثر تحققاً في نظر المتكلم الفطري من الأصوات الموضوعية نفسها" ويقول في نفس المقالة: "إن السيكولوجية المركبة للعلاقة والنمط واضحة في نطق أبسط صحيح أو علة". ويقول مرة أخرى: "ويوجد بالبديهة مكان للصوت (منظوراً إليه باعتباره نقطة حقيقية في النمط لا باعتباره أحد الصور الصوتية المشروطة) في نظام لوجود إحساس عام بعلاقته الأصواتية بالأصوات الأخرى" ويقول: "إن غرض هذه المقالة وروحها أن ترى أن الظواهر الأصواتية ليست عضوية، مهما كان من الضروري في المراحل الأولى للبحث اللغوي الاستقرائي أن نعطي الحقائق الأصواتية تجسيماً عضوياً. فالمناقشة في الحقيقة توضيح خاص لضرورة الذهاب إلى ما وراء مادة الإحساس، في أي نوع من أنواع التعبير، لندرك من الأشكال ما يدرك بالبديهة ويعطي معنى للتعبير".

ومن العلماء طائفة ترفض الإدراك النفسي للفونيم، ويقولون في الوقت نفسه إن الفونيم لا يوصف عن طريق الأصوات التي توضحه، بل يحددونه في ضوء وظيفته التركيبية في اللغة.

---

(1) Sound paterns in language, language, Vol.1, 1945, pp.37-51 and la Realite Psychlogique des Phonemes Journal de Psych. Jan-Apr, 1933.

وفي مقدمة هؤلاء تروبتسكوي[1]، الذي يبدو أنه يعتبر الفونيم أي واحد من الخلافات الصغرى التي تفرق بين الكلمات في المعنى، وقد سبق شرح ذلك. ويحدد الفونيمات بأنها وحدات تشكيلية لا يمكن تقسيمها من وجهة النظر اللغوية إلى عناصر متتابعة أدق، وقال إنها علامات مميزة، لا يمكن تعريفها إلا بالرجوع إلى وظيفتها في تركيب كل لغة على حدتها.

وهو يقول أيضاً إن الفونيم مجموع الصفات التشكيلية ذات الصلة بالموضوع. ثم هو يقول: إن الفونيم فكرة لغوية لا نفسية. ومما يرضي أن تروبتسكوي يقود بنظرته هذه إلى نفس النتائج العملية التي قادت لها أوضاع أخرى للنظرية، وذلك أن هذه النظرية تمنحنا مادة جوهرية لتحليل التراكيب اللغوية، وأساساً قوياً للكتابة الأصواتية.

ويبدو أن بلومفيلد يرى نظرية الفونيم من نفس زاوية تروبتسكوي؛ فهو يعرف الفونيمات بأنها "الوحدات الصغرى من الصفات المميزة للأصوات"، و"أصغر ما يحدث اختلافاً في المعنى من الوحدات". ولقد قال أيضاً: إن فونيمات اللغة ليست أصواتاً ولكنها صفات في الأصوات التي ينتجها المتكلم بالتدريب، ويميزها في تيار الكلام العملي.

أما "توادل" فيقول إن الفونيم ليس له وجود حقيقي، لا من الناحية العضوية ولا من الناحية النفسية، وإنما هو وحدة خرافية تجريدية. وهذا هو رأي هيلمسلف كما يبدو، وكل هذه الآراء تقود إلى نفس النتيجة العملية. هذه النتيجة العملية هي:

1- أن الفونيم يؤدي وظيفة دلالية، حيث تأتي الدلالة من الفونيمات والمورفيمات والكلمات والجمل.

---

(1) N.S.Troubetzkay, Grandziuge der Phonologie, p34.

2- يعين على تعلم النطق الأجنبي.

3- يعين على استخدام الأصوات الصحيحة في أماكنها الصحيحة.

4- يعين على فهم النحو والصرف وبقية الدراسات اللغوية، عن طريق الإضافة والاستخراج والاستبدال.

5- يعين على خلق أبجديات منظمة للغات المختلفة. وهذه الناحية محل دراسة ضخمة في أمريكا، تعرف تحت عنوان "Phonemics".

المصادر والمراجع:

1. أسس علم اللّغة: ماريو باي، ترجمة: أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، 1983م.
2. الأسلوب والأسلوبيّة: بيير جيرو، ترجمة: منذر عيّاش، مركز الإنماء القومي، بيروت.
3. الأسلوبيّة التعبيريّة "أسُسها ونقدها": محيي الدين محسب، نادي القصيم الأدبي، بريدة، 1998.
4. الكتاب: سيبويه، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، عالم الكتب، مصر، ط3، 1983م.
5. الألسنية العامّة: د.ريمون طحّان، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1972.
6. الأنظمة السيميائية "دراسة في السرد العربي القديم"، هيثم سرحان، دار الكتب الجديد، 2008.
7. البحث اللغوي عند العرب: د.أحمد مختار عمر، عالم الكتب، 1988.
8. تاريخ علم اللغة: جورج مونان، ترجمة: بدر الدين القاسم، جامعة حلب، 1981.
9. تشومسكي "فكرة اللغويّ وآراء النقّاد فيه": د.صبري إبراهيم السيّد، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1989.
10. التفكير اللساني في الحضارة العربية: د.عبد السلام المسدّي، الدار العربيّة للكتاب، تونس، 1981.
11. خزانة الأدب: عبد القادر البغدادي، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، 1986م.
12. الخصائص: عثمان بن جنّي، تحقيق: محمّد علي النجّار، القاهرة، 1952.
13. دراسات في اللغة: د.مسعود بوبو، جامعة دمشق، المطبعة الجديدة، 1988.

14. دور الكلمة في اللغة: ستيفن أولمان، ترجمة: د.كمال بشر، القاهرة، 1962.
15. ديوان امرئ القيس: تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، 1958م.
16. سرديّات العصر الإسلامي الوسيط: محمّد الموسوي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1997.
17. سر صناعة الإعراب: عثمان بن جنّي، تحقيق: السقا وزملائه، القاهرة، 1954.
18. السيمياء والنص الأدبي، الملتقى الوطني: جامعة محمد خضر بسكرة، منشورات الجامعة 2000م.
19. شرح ديوان زهير بن أبي سلمى: صنعة: أبي العباس ثعلب، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1964م.
20. شعريّة المحكي: رولان بارت وآخرون، ترجمة: د.غسان السّيّد، دمشق، 2001.
21. العربيّة الفصحى: هنري فليش، تعريب: عبد الصبور شاهين، دار المشرق، بيروت، الطبعة الثانية، 1983.
22. علم اللغة: د.علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، 1984.
23. علم اللغة الاجتماعي: د.كمال بشر، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 1995.
24. علم اللغة: "مقدّمة للقارئ العربي"، د.محمود السعران، دار النهضة العربية، بيروت.
25. فصول في علم اللغة: فرديناند دوسوسير، ترجمة: د.أحمد نعيم الكراعين، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندرية، 1985.
26. في أصول النحو: أ.سعيد الأفغاني، مطبعة جامعة دمشق، الطبعة الثالثة، 1964.

27. في علم اللغة: د.غازي مختار طليمات، دار طلاس للدراسات، دمشق، الطبعة الثانية، 2007.
28. قاموس اللسانيّات: د.عبد السلام المسدّي، الدار العربيّة للكتاب، 1984.
29. قراءات مع الشابيّ والمتنبي: د.عبد السلام المسدّي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1981.
30. قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث، د.مازن الوعر، ط1، دمشق، دار طلاس.
31. لسان العرب: ابن منظور، دار صادر، بيروت.
32. اللسان والإنسان: د.حسن ظاظا، دار المعارف، القاهرة، 1971.
33. اللسانيات "المجال والوظيفة والمنهج: سمير شريف استيته، عالم الكتب الحديث، عمان، 2005.
34. اللسانيات واللغة العربيّة: د.عبد القادر الفهري الفاسي، دار الشؤون الثقافية العامّة، بغداد، 1985.
35. اللسانيات ونحو النص: د.إبراهيم خليل، عمّان، الطبعة الثانية، 2009.
36. اللغة: فندريس، ترجمة: عبد الحميد الدواخلي، ود.محمّد القصّاص، القاهرة، 1950.
37. مبادئ اللسانيّات: د.أحمد قدّور، دار الفكر، دمشق، 2008.
38. مدخل إلى الأسلوبيّة: الهادي الجطلاوي، دار عيون، الدار البيضاء، 1992.
39. مدخل إلى علم اللغة: د.محمود فهمي حجازي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1409.

40.المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي: د.رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1985.

41.المزهر في علوم اللغة وأنواعها: جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم وزملائه، القاهرة، 1958.

42.معجم السيميائيات: فيصل الأحمر، الدار العربية، بيروت.

43.مناهج البحث في اللغة: د.تمّام حسّان، القاهرة، دار الكتب، 1955.

44.نظرية تشومسكي اللغوي: جون ليونز، ترجمة: حلمي خليل، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، 1985.

45.الوجه والقفا: حمادي صمود، الدار التونسية للنشر، تونس، 1988.